الباذنجانة الزرقاء

ميرال الطحاوي



الباذنجانة الزرقاء

ميرال الطحاوي

إلى الولد الصغير الذي رافقني كل أوجاعي أخـــي..

محمود

المحتويات

أرجوحة سن الفأر

كانت تريدني أن أصبح أميرة فألبستني أحذية أصغر من مقاسي، وربطت مهرة صغيرة سمّتها باسمي في كافورة بيتنا وحدّثتني في اللّيل عن أحزانها، كان لابـدّ أن أصـير أطول قليلاً لأنّ كلّ الأميرات ممشوقات القوام. أبـي كـان يريدني عالمة فضاء فربّما اكتشفت أشياء مبهرة وأن يطلـق اسمه على مجرّة من المجرّات، كان يفترض أنني عبقريـة اضطررت أن أعتقد ذلك معه.

أخي لم يكن يجاهر بما يريد، لكنني مـن دون أن يتكلم حرصت أن أثبت له أنني قدّيسة، أصلّي كثيرًا وأطلـب المغفرة على ذنوب كنت أحلم فقط باقترافها.

اكتشفوا مبكرًا أنّني مخيّبة للآمال وتـأخّرت حتـى أدركت أنّني بنت مثل كلّ البنات، أحلم أنّ في الكافورة فرسًا، يركض بها رجلٌ يدّعى محبّتي، يخطفني من الشرفة المطلّـة على القمر لنكتشف عوالم، ليس مهمًا أن يطلق عليهـا اسـم أبي. سنحفر حروف أسمائنا فقط، ونصدّق أن الله رحيم ولن يعتبر المحبّة إثمًا كبيرًا.

تأخّرت في اكتشاف ذلك، فاكتفيـت بشـراء سـمكة أسميتها "إيرما". ترقص إيرما أمـامي فـي بلّورتهـا وأنـا

أستغرق باهتمام في مراقبة خيباتي، وأدّعي انّ عبقريتّي لـــم تكتشف بعد.

"عزَّى المِعزي وكِبرت القله
ما فيش ولد ياخد العزا برَّه"

استقبلتها الجدّة بهذه العدودة، كانت مثـــل الباذجانـــة الزرقاء، لم تستطع أن تسكن في بطن الملكة "ناريمان" أكثر من سبعة أشهر. بطن الملكة كان يعتبر النتوء الـــذي طفـــر، بعد بضعة أشهر من الزفاف، شيئًا مخجـــلاً، لأنّ صـــديقاتها حين كن يلتففن حولها في البلكونة ويهززن سيقانهنّ العارية، يقلن لها: "لم هذا الاستعجال يـــا ملـــك، خســـارة صـــحّتك". وتمضغ تانت حبيبة الممتلئة بقايا "الكريم كرمل" من طبقهـــا وتضحك باسترخاء قبل العبارة وبعدها:

- "فؤادي ولا ولادي".

تانت "نوال" تدخّن، وترقص، وتلقّد "رجاء الجدواي" في مشيتها، وتقتني كلّ أعداد مجلّة "حوّاء". ستضع سيجارتها في المطفأة، وتشير بإصبعها إلى وجهها:

"الزبادي مهمّ جدًّا في هذه الفترة لوجهك كي لا يظهر الكَلفَ والنمش. المنطقة التي حول عينيك يا مَلَك لا تلمسيها،

دلّكيها بالكريم المرطّب من أسفل لأعلـــى، عكـــس خطـــوط العين".

تانت فوقيّة مدرسّة الفصل لن تتكلّم، ستغزل لها من الكروشيه أثوابًا للبيبي، وتبدو أكثر شجنًا لأنها بلا أطفال.

سعد باشا سيفرح لأنّه وحيد ويريد عائلة أكبر مـــن قبيلة. أولاد يسندونه، وبنات، واحدة أمّ، والأخـــرى أخـــت، والثالثة ابنة، والبقيّة سيجد لهم أماكن كثيرة فارغة في قلبـــه ليضعهم فيها. فرحته يرسلها في خطابات تضعها الملكة تحت وسادتها.

سعد باشا يعمل جرّاحًا، إنّه على الجبهة في "مستشفى التل الكبير العسكري". الفوانيس التي يطفئونها في الغـــارات تذكّرهم بأنّه رجل شجاع لا يخاف الحـــروق ولا الأعضـــاء المبتورة لمجنّدين في سترات عسكريّة، طلمبات الكيروســـين التي تشتغل تحت ضوئها تابلوهات الكانفاه، ستذكّرها بأنّهـــا في قرية صغيرة وليست في القاهرة ولا الإسكندرية، صحيح أنّها أرض أبيها وجدّه، لكن كلّ صديقاتها وبنـــات أعمامهـــا سيطلقون عليها فقط "العزبة"، العزبة التي يزورونهـــا فـــي الأعياد والإجازات.

وعندما يدعون صديقاتهنّ ليشاهدن الفلاّحين وتحزن أكثر وتشعر أنّها في المكان الخطأ، تنظر للنتوء الذي في بطنها، سيكون وجوده مبرّرًا لمناقشة أمر مستقبله وتعليمه في البيئة المناسبة.

في مدار السرطان، برج القرد، في العام السابع والستّين بعد الألف والتسعمائة، ستهبط من بطن الملكة ناريمان في منتصف اللّيل، والفوانيس في السماء تؤكّد غارة جديدة وصوت القنابل ليس بعيدًا، والظلام يقرّر أنّه من المحتوم أن تلِد الملكة على يد الجدّة، سيتمّ بترَ حبل الخلاص، سكّينة المطبخ لم تكن حادّة كما ينبغي، ستسنّها "ستّي" على حَجر خفّاف كانت تدعك به كعبها، وستضع في فم الملكة خرقة يتّضح بعد مرور الغارة أنّها كانت قذرة، لكن ينبغي أن تعضّ المرأة أثناء ولادتها شيئًا، واللّمبة السهاري كانت لا تُبيِّن الفرق بين "السّما والعمى".

وحين تجفّف الملكة عرق الخلاص من النتوء، لن تجد في زجاجة الكولونيا المنسكبة بقيّة لتطهير الجرح.

بعد سبعة أيّام لن يحفل أحد بمولِد "الباذنجانة الزرقاء" التي رزقت بها، لأنّ الأب لم يعد ، ولأنّ الغارات العارضة

لم تكن غارات، بل كانت هزيمـــة (١٩٦٧)، ولأنّ الملكـــة كانت تصطكّ أسنانها خوفًا من "التيتنوس" الذي ربّما يأتيهـــا بعد هذه الولادة الهمجيّة التي لم تتصورّ أن تخضع لطقوسها أبدًا.

بعد سبعة أيّام أخرى سيعود الأب وفي يده خلل يشبه الشلل النصفي، وسيقول أصدقاؤه بأروابهم البيضاء "أعصابه لم تتحمّل"، لن يتذكّر أن نتوءًا كان في بطن زوجته قد تحوّل إلى باذنجانة زرقاء إلاّ بعد أيّام طويلة قادمة. سيكتشف مـــن خلال نظرته الأولى أنّ الطفلة جاءت قبل الأوان، وأنّ حبـــل الخلاص الذي عقدوه سرّة لها لم يتم ربطه كما يجب، فالسرة تتفتّق لتبرز أحشاءً صغيرة لم يكتمل نموّها. سينشغل بغيـــار الجرح وربط السرّة ونموّ الباذنجانة، وقدرتها على الابتســـام وهي في الشهر الأوّل. وستعتبر الأمّ خروجه من صمته على يد قطعة اللحم التي نسوا أن يختاروا لها اسمًا معجزة كبيـــرة تستحقّ ذبح خروف، وعزومة لتانت نوال وفوقيـــة وحبيبـــة وكلّ من له في الولائم.

عقدوا اجتماعًا كبيرًا ووضعوا في وسط التورتة سبع شمعات، وكلّ شمعة لها اسم: نادية، ناني، نـــرمين، نـــدى،

نشوى، نهلة، نجلاء. الملكة ناريمان تحبذ حرف النون لأنه ينطق من الأنف وبتأنٍ شديد، ويأخذ مساحة أوسع نسبيًا من الميم والياء، ولأنّ اسمها لم يكن "ناريمان"، لكنّها من يوم أن وضعت صورتها في الإطار وقالت لها كلّ صويحباتها إنّها تشبه ناريمان في صورة زفافها وهي متمسّكة بهذا اللّقب، حتّى أنّها نسيت اسمها الحقيقي فقد كانت تريد لابنتها اسمًا راقيًا يصلح لأميرة.

قال سعد باشا "ندى" وبقيت شمعته موقدة حتى النهاية، فاختاروا الاسم، ودعوا بعمر لا ينطفئ للطفلة ذات الرباط على سرّتها، التي اعتقدوا جميعًا أنّها لن تعيش طويلاً، لكن حتى الأموات يجب أن يكون لهم أسماء تناديهم الملائكة بها، فليكن "ندى"، بعد أن يصبح لها مذكّرات وقصص وأشعار في أوراق خاصّة، ستكتفي "بنون" تضعها في نهاية الصفحة.

في السنة الأولى صارت تتكلّم، صغيرة ونحيفة ورأسها أكبر من جسدها، وساقاها لا تحملانها، كانت أشبه بأراجوز صغير، كل سكناته ولفتاته وثأثآته مضحكة، يحملها "سعد باشا" ويطوّحها في الهواء ويقول "قد الزبلة ومقاومة

الطيارة" إشارة إلى ساعديه اللّــذين يطوّحانهــا، و "الزبلـــة" جسدها الضئيل الذي يتطوّح في الهواء وتصدر عنـــه هــذه الكركرات العالية التي تشبه ضحكات الأطفـــال المرســـومين على اللّبن وبودرة التلــك. ضــحكتها فقــط كانـــت تشـــبه ضحكاتهم، لكن شكلها كان يؤكّد نبوءات الجدّة "ستِّي" بأنّهـــا "تمن الإبرة" أي لن تباع في سوق الصبايا إلاّ بثمن الإبـــرة. سعد باشا "سيقول" "قشروا، بنتي مثل القمر"، ولم يكن القـــرد في عين أمّه غزالاً، كانت أمّها مشغولة بنتوء جديـــد، بـــدأ يظهر في بطنها تفاعلت به كثيرًا ، ورحل الأب بعدها إلـــى الجبهة مّرة أخرى، حاملاً معه، في تسجيل الصوت كركـــرة القردة التي كانت باذنجانة وهي تغنّي له:

"كتبوا كتابك يا نقاوة عيني، والطشت فضّة والمعالق صيني".

قد يضحك سعد باشا على أقوالها التي تؤكّـد أنّهـــا أراجوز صغير، لكنّ الملكـــة ســتعتبرها "تكبـــة" بأغنياتهـــا وأقوالها التي تأتي بها غالبًا من جدّتها "ستِّي" ثمّ من الأشكال والألوان لخادمات صغيرات تبدّلهنّ الملكة، بعد أن يتضّح لها أنّها تعلّمت من السابقة لفظة أو حركة غير لائقة.

ستظلّ أمّها تبدّل في الخادمات ولن تكفّ الابنة عن التقاط أشياء يضحك عليها طويلاً، وسيسجّل لصوتها أغنيات أخرى.

"أحبّ ولا أتوب يا ناس شوروا عليّا"،

قُصّة حبيبي زبدة مدهونة"

وستبلغ المهزلة ذروتها حين تشاركه زجاجة "البيرة" بكوب يشبه فنجان القهوة وتسقط مسطولة بعد ثاني جرعة، بعد أن تكون عيناه ممتلئتين تمامًا بالدمّوع من كثرة الضحك، ولن تجد الملكة مفرًا من الابتسام وهي تحملها إلى فراشها، مؤكّدة كلّ مرةّ أنّها "خلفة شياطين" وستعرف رقبتها ساق الفراش، وتتبح طويلاً في غيابه، لأنّها قالت للملكة وهي تشير بإصبعها الصغيرة في لحم ساقها، وبدون أيّة مقدّمات "خذي دبّوس" ووسط اندهاش الأمّ التي ترجمت "الدبّوس" ترجمة صحيحة، بإبدال الدال عينًا وبالتقديم والتأخير، واستشفاف مظاهر وخز الإصبع، وبعد ابتلاع الصدمة المصاحبة لبراءة الأراجوزة، التي تُقَلِّدُ فقط، فقد تمّ عقد اجتماع مطوّل لتانت حبيبة وناول وفوقية وأخريات لمناقشة هذه المصيبة، وتمّ وضع الفلفل الحارّ في فمها، وربطها في

ساق الفراش، وإظلام الغرفة، ثمّ صودرت عروستها من حضنها وتمّ الاصطلاح على مناداتها "تربية الشوارع" في مسار المسمّيات التي ستطلق عليها ابتداء من الباذنجانة الزرقاء ثمّ القردة، فالأراجوزة، فتربية الشوارع، هذا اللّقب الأخير سيلتصق بها لمدّة طويلة.

*

- "افتحوا لي الباب ده،
- الجاموسة والده،
- طَبْ افتحوا لي الباب ده،
- الجاموسة والده"

للباذنجانة ثلاث جدّات، واحدة بحلَق "مخرطة" ومنديل "خرز النجف" وجلاّبيّة "رمل سينا" ولها حذاء تلفّه في كيس بلاستيك "جزمة باتا"، تقول عليها جلد طبيعي ولا تلبسه، لها أيضًا "طرحة تُللي" من الحجاز، وتلفّها في كيس آخر، وحين تجلس على "المصطبة" الطينيّة التي تطوّق غرفتها، فلن تلتفت الباذنجانة إلى العصافير المدقوقة على صدغها، فالبقع الداكنة كحروق هي التي تؤرقها. ستظلّ

تسألها كلّما نسيت "ما هذا يا ستِّي". لــن تغضــب، فهــي لا تعرف كيف تغضب أو تحزن، تضحك فقــط ضــحكة لهــا صوت الخلاء وتتأوّه، بعد أن تملأ حدقتيها بدموع الضــحك، ثمّ تقول:

"خطِّي الزمن فوق جبين الحلو ميت خطــوة، قلــت الوليد شاب وشيب الرّاس والهموم حَطْهَا"

جَدّتها هذه تعرف كيف ترقص، رأتها وهي تــرقص أكثر من مرّة أمام دولابها في المرآة، وتنام في قميص "ستان لاميه" هكذا تسمِّيه، وعلى صدره "خرز النجف" وفي جيــب كلّ جلاّبيّة مرآة صغيرة وملْقط، ورغم أنّ حواجبها لم تعــد تحتاج لملاقط، فهي أرض بائرة منثور فيهــا شــعرة هنــا، وأخرى هناك، لكن الملقط كان لشعر ذقنها وشواربها التي لم تخل من بصيلات مماثلة.

جدّتها "ستِّي" تسكن هناك في آخر سور الحديقة بعــد الحائط المتهدّم حيث تختلط الأرض المزروعة بالأرزّ والذرة مع أشجار المانجو والبرتقال، على الحائط المتهدّم ســتجلس الجدّة مادّة ساقيها في القناة الضيّقة المليئة بالماء، ومن حولها الكتاكيت والأرانب وديــوك الرومــي التــي تجــري وراء

الباذنجانة وتكركر، من هذه الفتاة التي حفرت فيها بأظافرها لتخرج منها العَلَق وتضعه في السنّارة عندما كانت تتعلّم الصيد، ومنها أيضًا ستُخرج الجدّة قنفذًا وتضعه لها في علبة ورقية وتخبئّه تحت سريرها لتلعب به كلّما هربت وجاءت إليها، سرير هذه الجدّة نحاس، وعليه ملاءة دائمًا بيضاء، معطّرة، وفوقه كلّه بمبي، إذا وضعَت فيها ستنعس. ورغم أن غرفة جدّتها ليست مسقوفة بالخشب، وأرضها مفروشة بالرّمل الأصفر الذي تنديه بماء حمومها كلّ صباح، وفي الشقوق قليل من النمل أو البراغيث، فقد كانت تحبّ أن تجلس بجوارها على الحصيرة، وتفرك معها العجين للكتاكيت، أو تطارد الأرانب الصغيرة في الدوار المقابل. لا أحد يستطيع الإمساك بالأرانب إلاّ الباذنجانة إذا خلعت حذاءها، ووضعت طرف ثوبها في فمها وركضت كجروة شرسة، وارتمت عليها، بعد أن تتعب من الركض وتسلّق الأشجار ستنام في حجر جدّتها "ستّي" لتحكي لها حدّوته "فرط الرمان في صحون دهب"، ثمّ تشبك لها أصابعها الخشنة ليلعبا "افتحوا لي الباب ده". تضحك الباذنجانة وتكرّر:

"الجاموسة والده"، ثمّ تحمل غنيمتها وتعود والملكة تتفقّدها وهي قادمة وفي أحضانها "كرتونة" بها ثقوب.

أرنبة بيضاء، ليس لها صوت، تتكمش في علبة ورقيّة، أسمتها جدّتها "قُلّة، لها فم صغير يقرض بقايا حشائش، لماذا تركلها أمّها من الشبّاك وتصرخ "ماذا أفعل فيك يا تربية الشوارع والحظائر؟!"، لن تردّ ستحاول ألاّ تبالي، ستصبح مثل "ستّي" باسمة بلا مناسبة، وبنظرة فقط تصوّبها من جانب عينيها لها شكل الكراهية أو الغيظ أو العتاب ستواجه الموقف، وإذا بكت في اللّيل فلن يراها أحد، ستحفر نفقًا مظلمًا في أحلامها كالأرنب، وتضع فيه دموعها وتساؤلاً حارقًا عن كون هذه المرأة التي يسمّونها "الملكة ناريمان"، هل هي أمّها بالحقيقة؟ أمّها التي انزلقت من بطنها في ليلة مظلمة وفي السماء فوانيس غارة، وفي الغرفة صراخ مكتوم بخرقة متّسخة،لم يقصد أحد أن يضعها في فمها، لكنّها وضعت مصادفة لكي تظلّ الملكة ترى أنّ وجود الباذنجانة في حياتها نكبة لكلّ طموحاتها. لن تفهم الباذنجانة ذلك إلاَّ حين تطوي الكثير من الأوراق وتخطّ وهي تقلب بين مراجعها خطوطًا كثيرة تحت "التمردّ ومشاعر الذنب

والعدوان بين الأمّ والابنة" ولن تشعر بأنّ لأمّها صدرًا دافئًا إلاَّ وهي محبطة تمامًا ووحيدة بعد أن فتح الولد الذي تحبّ باب سيّارته وقال لها: "لا أريد أن أرى وجهك". كان صدر أمّها مفتوحًا كما لم تره من قبل. حينها فقط استطاعت أن تغفر لها بعض الأشياء.

*

جدّتها الثانية اسمها "الشريفة" وتناديها "الجدّة الشريفة" . أمّها تقول عنها "شيخة عرب"، وسعد باشا يوقّرها ويقبّل يدها، يدها سوداء و "معروقة"، ومليئة بالأساور والخواتم، وعلى كتفها عباءة، وفوق رأسها عقال، وأنفها نحيف كمنقار "صقرة"، تشبه "عود الذرة الناشف". هكذا كانت الجدّة الأولى تقول، وأحيانًا تلقّبها "بكوز العسل أبو ايدين فضّة" وتضحك ثمّ تكمل: "فاضي ومتعنطز على إيه يا كوز، لمّا العسل انكبّ وانفضّى؟!".

جدّتها "ستّي" تكره الجدّة الشريفة، ولا تخفي كراهيّتها، فهي لازالت تعتبرها ضرّة رغم أنّ صاحب الفرح مات كما يقولون، تفتح "ستّي" صدرها ليرقص العقد الأخضر بخرزه بين ثدييها وهي تكمل ضحكتها:

"قالوا الولاد في السّوق بهجورة غلّوا ثمنهم عليها وعاودت مقهورة".

أي الأولاد في كلّ الأسواق كثيرون مثل الهمّ على القلب، ما إلا ثمنهم إلاّ على العاقر التي تعود من سوق الخلف مقهورة، تعايرها بذلك أنّها لم تلد صبايا ولا رجالاً، ورغم أنّ "ستّي" تعيش في البيت "التحتاني" كما تسمّيه "الملكة" فهي تعيش في بيت ابنها "جارية ولا ست" لا يهمّ، أمّا الجدّة الشريفة فهي تسكن هناك مع عبيدها، أليست شيخة عرب، بعقال، تركب فرسًا، ومن تحتها العبيد يلكزون الركوبة، ويجرجرون أقدامهم في موكبها؟!، موكب الجدّة الشريفة يأتي في المناسبات الكبيرة فقط، لذلك لم تجئ يوم مولد الباذنجانة، أتت يوم مولد النتوء الذي سيليها، لأنّه كان "ولدًا" يحمل اسم أبيه وجدّه، يومها رقصت الجدّة الأولى "ستّي" وتحزّمت، على المصطبة، والنسوة من حولها يصفقن، وعلى طست حمومها يدقدقن: "مملوك صغير لمّا حضر، يا حيطة بيكي عرضي انستر".

وجلست الجدّة الشريفة" فوق، ومن البلكونة، كانت ترقب هذه الضجّة، صفّوا لها الوسائد، وأمامها تربّع سعد

باشا وبجانبه الملكة يصبّان لها القهـــوة ويتبـــادلان تحيّتهـــا، ويؤكدان أنّ حضورها شرف وبركة، والبيت نورّ من فـــوق ومن تحت.

تهزّ رأسها فقط ولا تتكلّم، وتمدّ يدها ليقبّلها الـــرائح والغادي، وحين تقف، يقف عبيدها لوقفتها، ولـــن تقبـــل أنّ يوصلها "سعد باشا" لبيتها، ستقول لـــه "الوابـــور لأصـــحاب الطرابيش" وتضع في لفّة الصبي ربع جنيه ورق، وهي تعتقد أنه مبلغ كبير، وسوف يقبّل سعد باشا يدها بامتنـــان، ولـــن تجرؤ الملكة بعد خروجها على التندّر بالمبلغ الذي تنقّط بـــه حفيدها، فهي شيخة عرب ولا تفهم في النقود.

لن تترك "الجدّة الشريفة" بعد موتها إرثًا لسعد باشـــا سوى صندوق خشبي كبير، كان أبـــوه يجلـــب فيـــه قطـــع الصابون النابلسي والقماش في قوافل تجارته، ومهرة صغيرة سوف تصبح مادة للتندّر عليها وعلى الباذنجانة بعد أنّ تحكي له أنّها خبطت رأسها في الكافورة، وقالت الملكة إنّ "رأســـها ناشف مثل صاحبتها" سيفتح الولد الذي تحبّ فمـــه متهكّمًـــا "عندك مهرة أم بغلة"، "مهرة بذيل أم قطة". لن تجيب، فقـــط

لأوّل مرَّة ستراه، رغم أنّ السينما معتمة، ستراه كمــا هــو، ولن تكرهه، ستلاحظ ساعتها أنّ له أسنان فأر.

سعد باشا لن يغضب حين يفتح الصندوق المحمــول على ظهر مهرة صغيرة يركض وراءها عبيــدها، بعــد أنّ تقاسموا بوصيّتها كلّ ما تركت، سيبتسم، والملكة لا يليق بها الولولة، ستخبط كفًا بكفّ وتقول "الله لا يرحمها مطرح مــا راحت".

الجدّة "ستِّي" هي التي لن تكتف ساعتها عن الضحك الخشن الذي يخرج من حنجرتها، وتحرّك السَّبَّابتَيْن روحــة وجيئة وهي تهزّ رأسها بالإيقاع نفسه.

"قليل الولد هلبت من موته ح يخرجوه ويقفلوا بيته

قليل الولد هلبت من فقده ح يخرجوه ويقفلوا ملكه"

ورغم أنّه كان يعتقد أنّ بالصندوق حذاء "عجبــة" أو درع "حمد الباسل" أو خنجر جدّه "يونس"الكبير أو حتى جوّال "الشافعي" أبو الكرامات، لكن ما بالصــندوق كــان صــفعة حقيقيّة على وجه الملكة ناريمان، تلك الصفعة استدعت عديدًا شامتًا من "ستِّي" فمزجت ضحكتها جديدة بحركة إصبعها:

"أنا اللي فايتالكم كراديني أنا اللّي تاركالكم دموع عيني

ويعلو صوت ضحكتها الساخرة في الفِناء حتى تخاف الأرانب وتلبد في جحورها.

الجدّة الثالثة اسمها "نينا" قصيرة وبيضاء وترتدي ثوبًا أسود، قصيرًا. لا يقبل "سعد باشا" يدها، فقط ينحني وهو يسلّم ويقول لها "يا هانم" لها خادمة سوداء في مثل سنّها اسمها "دهبة" تناولها علبة مُطعّمة بالصدف تسمّيها "علبة الدواء" بها مشط ومرآة وزجاجة عطر وقلم حواجب وقلم شفاه أيضًا، تراقبها الباذنجانة وهي تعد رسم وجهها كلّ نصف ساعة وتعيد تصفيف نصف ساعة وتعيد تصفيف شعرها القصير الذي سيظلّ كذلك مدّة طويلة قبل أن ترتدي "بونيه" في منتصف رأسها بعد مدّة أخرى إلي كاب تركي مائل إلى حواف "جبهتها"، ثم أخيرًا بعد أن تحجّ تتلفّع بغطاء كبير من الحرير الأبيض، ولا تنسى أن تزين أطرافه بورد من "الجبير".

أقدام "نينا" صغيرة وممتلئة وبيضاء، حين تنعس في فراشها ستسكب لها "الخادمة" على الوسادة بعض الكولونيا وتدلك قدميها الصغيرتين بماء الورد، ستبدو أصغر من

عمرها وهي في القميص الـــوردي وســـتظلّ هادئـــة دومًـــا ومبتسمة.

تجيد "نينا" عمل قطع الصابون بزيت الزيتون الأخضـــر والكحل الهب، وتعدّ لكلّ ابنة لها مكحلة بِمِزْوَدَ فضّة، وعلب خشبية بها مسحوق الشبّة والمستكة والقرنفل، تفرك به نينـــا إبطيها بعد حمّام الصباح، غرفة نومها من خشب الأرو، ولها بابان، باب صغير يُفضي لحمّام ضيّق به طست نحاس أحمر أسفل الدشّ، ومقعد خشبي بلا ظهر وسط الطست، به أيضًـــا رفّ من الخشب فوقه مرآة وعلب متراصّة بها مواد مسحوقة ولزجة، لها روائح نفّاذة كثيرًا ما عبثت فيهـــا "الباذنجانـــة"، وفي سلّة من سلال الغسيل ستتكوّم المناشف من كلّ الأحجام والألوان، سوف تضع "نينا" لها واحدة حول رقبتها وأخـــرى على ساقها وأخرى تهشّ بها الذباب، سوف تكره الباذنجانـــة كلّ المناشف وتجفّف عينيها وساقيها وجسدها ويـــديها بعـــد الأكل وقبله في منشفة واحدة مرسوم عليها قطّـــة، ستســـمّي القطة "ياسمينا" وفي اللّيل ستكور المنشفة وتحتضنها وهـــي تهمس "نامي يا حلوة نامي" وتحس بلســـان رطـــب يلحـــس دموعها باللّيل ويموء.

حين تموت "نينا" فلن ترث الملكة صندوقًا خشبيًا مماثلا فقط، سيضاف إليه ما اقتسمته مع أخواتها قطعًا أثرية أخرى، أباريق نحاسيّة مطليّة بماء الذهب، كانت تضعها "نينا" في البنوار زي المرايا، قدور نحاس ومَبْخَرَة و "مكفى" مخرّم كانت توضع أسفله الشموع، طاقم شاي من الفضة ستعكف الباذنجانة على تنظيفه وهي تعتقد أنّه سيكون جميلاً لو رآه الوالد الذي تحبّ، وحكت كيف كان لها جدّة أتت من نابلس في هودج وقافلة طويلة من الجمال.

– بيت مين ده؟

– بيتنا.

– وبيت مين ده؟

– بيتنا.

وقبّة مين دي؟

– بنت السلطان.

– فيها إيه؟

أرجوحة نصبها لها بين كافورتين ثم طوّحها. في الليل رأت الزهرة وبنات نعش ورفيقات القمر، وفي النهار، كانت ترى البنات من خلف سور البيت بأقمطتهنّ الزاهية، يجدلن

الخوص وسيقانهنّ في الماء، وصوت غنائهنّ يطوحها إلى أعلى ثم يغيب، أرجوحة بجانب السلّم، وعلى سوره الدرابزين كان الولد الصغير – أخوها –ينزلق وهما يكمّلان الأحجية:

فيها إيه؟

– خوخ ورمّان.

– فين نايبي؟

– تحت اللقان.

يتسلقّان النافذة ومن حديدها يطلاّن بساقيهما على الفراغ ويصفّقان:

– واللقان فين؟

– كسرته العجلة.

يغمسان ألواح البسكويت في صينيّة القلل، حين تسقط يركضان، ومن تحت سرير "ستِّي" يكملان:

– وفين العجلة؟

– دبحناها.

تتأرجح أكثر، وفي "البلكونة" المطلّة على الأرجوحة تجلس صويحبات الملكة ويضحكن. في كل ساق لها أكثر من

جرح وكدمة، غرزتان عندما سقطت على سور البيت، شقّ طوليّ في فخذها حين تشعلقت في مزلاج الباب، واحد حين سقطت من التوتة وآخر حين ركض الديك الروميّ وراءها في الفناء، ونابان لكلب الجيران الذي عضّها وهي تركله بالحصى، وندوب كثيرة أخرى لم تعرف أسبابها. ترفع طرف فستانها وتتأرجح، وحين يكفّون عن المضغ والضحك ستلوي إحداهنّ فمها وهي تربت على ظهر الملكة مواسية: "سبحان الخلاّق، الذي يراها لا يصدّق أنّها ابنتك يا ملك".

ربّما تداري الملكة وجهها بكفّها إذا كانت الباذنجانة ترقص بانهماك شديد، أو تقضم شفتها وتغمز لها بحاجبها وهي تحدّق فيها بنصف عين محذّرة. كانت تلك الإشارة كافية لجعلها تكفّ عن أي شيء تفعله، وإلاّ فإنّ فخذيها سينالهما مزيد من القرصات التي تترك خلفها بقعًا جديدة داكنة مائلة للزرقة، لا تكاد تغيب حتّى تظهر بقعًا جديدة وبذلك تعود الباذنجانة لطورها الأوّل بامتزاجها بهذا اللون الخاصّ جدًا بها.

وحدث أنّ ربطتها في ساق الفراش مرتين، مرّة "الدبّوس" ومرة حين ضبطتها وهي تجمع أعقاب السجائر وتفركها،

وتضعها في ورقة تخبئها لجدتها "ستّي" فضربتها، وأصـــرّت على ربطها في ساق الفراش ساعة فجمعت الباذنجانة، بعـد فكّها كلّ ملابسها، وصرّتها في مفرش الطاولة وقـــرّرت أن تهرب، ثم أثنت نفسها بنفسها عـن تلـك الفكــرة واكتفـت بالاعتصام أمام باب حجرته، كان الـبلاط شـديد البـــرودة، وصدرها ينحر بالكحّة رافضة أية مصـــالحات بعنـــاد دابّـــة حرون. ظلت مرتمية أمام باب غرفته حتّى جاء، وبعد فتـــرة من المصالحات، والنشيج والتوعّد لمن يغضبها بعد هذه الليلة بالزعل والخصام، طلبت منه في وشوشة غير مفهومة "كريم يبيّضني" أي كريم يجعل منها بيضاء، ولم يعرف كيف يكـتم قهقهته رغم أنه كان حريصًا على مشاعرها، قبّلها وهو يحيط فكّيها بيديه، فكّها سوف يصبح عمّا قريـــب مـــادّة للتنـــدّر، وستكفّ الملكة عن قرصها وعن تأمّل ساقيها لأنّهـــا حـــين تسقط من على الأرجوحة التي تطوحها للسماء لن تسقط على جذور رقبتها بل على فكّها العلوي الذي سينشطر نصـــفين، تاركًا خواءً وكسورًا سوف يقوّمونها بأسلاك رفيعة دقيقة من المعدن، تخرج وتدخل من وجنتها ومن أسفل ذقنهـــا تاركـــة مزيدًا من الخدوش والجـــروح والعلامـــات، ورأس كبيـــر

متورّم، ونصف شعرها الأمامي محلوق كي لا يلوّث الجرح، والنصف الثاني تركوه بعد أنّ بكت بحرقة. لم تكن تعرف أنّ هذا العرف الذي تركوه في مؤخّرة رأسها رغم أنــه أســود وكثيف وجميل ستبدو به أكثر قبحًا، ولن ترى أبدا في هــزة رأسها المتورمّ سوى خشخشة حلق طويل كانت تحلــم بــه، وحذاء بكعب عالٍ وفستان بكرانيش و "كــريم" فــي علبــة تخصّها، كلّ هذا جاء دفعة واحدة بعد أنّ حرصوا علــى أنّ يخفوا كلّ المرايا، وتبقى في فراشها تهــزّ رأســها وتضــع الكريم، وهو يطبق عباءته ويضعها على ساقه.

يحكي لها عن الجدّة "عجبة" التي غنمها جدّه من الأدغال. يمدّ من بين الأسلاك التي في فمها خرطومًا دقيقًا تشفط بــه العصائر وقد يكمل حكاية "عجبة" بحكاية يونس الفارس الذي قتلوه في الخان، وقد تنام فيضمّها أكثر، والملكــة ناريمــان تضع رأسها بين كفّيها وتجهش في البكاء، وبنات صــغيرات لهنّ أربطة ملوّنة وبأقدام صغيرة يصرخن بعد أنّ يلقين بعلب الحلوى ويركضن من الهلع وقد تحوّل وجهها إلى كتلة لحــم معجون بها ملامح، بعد أنّ تزول الصــدمة قلــيلاً ســيلتففن حولها في فناء المدرسة ويدقدقن بأرجلهنّ في الأرض.

- فين دمها؟!
- شربوه العصافير.
- فين العصافير؟!
- فوق الأشجار.

يخرجن من وسط أسنانهنّ ألسنة صغيرة حادّة تخرج وتدخل:

- سيسي يا سيسي يا سنّ الفأر.
- سنّ النجّار أبو منشار.

لن تُخرج لهنّ لسانها لأنّ لسانها محبوس بين قضبان الحديد المغلق، ستوزّع عليهنّ الحلوى أو الأقلام الملونة وتجلس في درجها وتصمت وتنظر في تشقّقات الخشب، مدّعية كلّ مرّة أنها ستكشف شيئًا أكثر غموضًا من أن يفهموه، وحتّى عندما نزعوا لها الأسلاك المتشابكة التي كان ينفذ منها الريق وتختزن الكلمات، فقد كان فمها لا يصلح إلا للتهكّم والسخرية. ورغم كلّ ما حدث لها فلم تنزل من على الأرجوحة، تصعد وتهبط مرّات عديدة. الشيء الوحيد الذي أضافته لجروح وجهها هو أنّ أمسكت في يدها قلمًا، فشلت وهي لا تفارقه أنّ تصبح "قاموسًا" كما كانوا يطلقون على

"أمل" التي لا تخطئ أبدًا في الإجابة على أي سؤال، وكل كشاكيلها مليئة بالنجوم، وإن كانت تقتسم معها بعض التصفيق خاصّة في حصة الهندسة لأنّها تعرف زوايا المثلّث، وتحسب انحرافه بمجرَّد النظر، كما كانت ثأثأة لسانها واحتكاكه بشفتها العليا تخرج الكلمات في حصّة الفرنساوي بشكل يعدّه مدرِّس الفصل جميلاً، لم تستطع رغم ذلك تعلّم غرزة الحشو أبدًا وإن اجتهدت في غرزة "الفرع" مدرسّة الأشغال تعبت في إفهامها، فلم تكمل مفرشها ولم يحتفظ لها بأيّ منتجات في غرفة النشاط سوى ببعض الزهور والفراشات التي جفّفتها وألصقتها على ورقة سميكة. وكتبت بالخط الرقعة "كلّ عام وانتم بخير"، خطّها لم يكن جميلاً في "الرقعة" ولم يكن سيئًا، كان مقروءًا، وهكذا قالوا لها وصفقوا لـ "زينب" لأنّها خطّاطة. اجتهدت كثيرًا في تحسينه، كما اجتهدت في رسم لوحة عيد الأم لكن أحدًا لم ير لوحتها عبقريّة، رغم أنَها رسمتها بألوان الماء والفلومستر، وجلست قبل تسليمها تتخيّل الاحتفال بها، صفقوا لـ "مايسة" لأنّها فنّانة، وخطوط قلمها الرصاص الذي لا تستعمل غير غاية في الدقة والمرنة والانسيابية، هكذا قال أحد الزوّار، وهو

يتأمّل لوحتها التي غلّفوها بإطار، لم تبالِ بهـذا، ورسـمت وطرّزت أشكالاً وأشياء لم تكن جميلة للغايـة، لأنّ طاقتهـا على الصبر كانت تنفد قبل استكمالها. غلبت سعد باشا فـي بعض أدوار الشطرنج، ولم يكن حظها حسنًا في لعبة السلم و الثعبان، وكان "نادر" أخوها يسبقها دائمًا في حفـظ أسـماء الأفلام والنكت والأحجية، ويستطيع أنّ يتذكّر أية نكتـة دون أنّ يراجع مجلّة "البعكوكة" ودون أنّ يتوقّف، وكلّ مرة يجودّ في طريقة حكيها وإلقائها، وإذا قاطعته في إلقاء واحدة كانت تنسى بعض تفاصيلها ولا تجد في نهايتهـا أحـدا يضـحك سواها، كما كانت تنسى الأغاني التي تسابقا في حفظها رغم أنّها اشترت كتاب أغاني "عبد الحليم" وتشاركه مجلّة الكواكب وتانتان وميكي وسمير، لكنّها كانت تنسى دائمًا وفي منتصف الحكاية أو الأغنية تُدخل الشرق في الشـمال ولا تكـفّ إلاَّ حينما تكتشف أنّ أحدًا لا يلتفت إلى ما تقول، خاصّـة أمّهـا التي كانت تركّز نظرها في انفراج شفتيها ، وميـل الشـفة العليا، والجرح الطوليّ بينهما، فهي رغـم كـلّ التعـديلات بإزالة الأسلاك المعدنية ونثر سنة هنا وأخرى هناك، اعتـدل معها الفكّ قليلاً، لم تستطع أن تكون لطيفـة إلاَّ إذا أغلقـت

فمها. لم يكن لها لذلك صديقات كثيرات، فلم تكن تعرف إذا أغلقوا باب الفصل كيف ترقص، وكانت حواجبها مخطوطة، ولا تحبّ أنّ ينتف لها أحد زغبها، كما أنّ فمها لا يصلح للقبلات، ولهذا فليس لديها أي أسرار تحيكها لهنّ.

تتأرجح على الأرجوحة بإصرار. تحاول أنّ تكون أطول قليلاً، فتتعلّق، بالأشجار لتزيد ثلاثين سنتيمترًا على الأقلّ إذا أصرّت أنّ تصبح عالمة فضاء أو عارضة أزياء، حملت فوق رأسها طوبتين وركضت في الحديقة متعلّمة بذلك تمارين حفظ التوازن، وتشقلبت بجوار الحائط كي يهبط الدم إلى الدماغ فتصير عبقريّة، أو تُحَمِّر خدودها فتصبح بقدرة قادرة "شيري تمبل".

وبعد تجريب كلّ الأقنعة ابتداءً بالتفّاح والعسل، الزبادي بالليمون، الردّة باللبن الرائب، وشرب كوب ماء دافئ على الريق، والنوم مبكرًا، ووضع كمّادات شاي على عينيها، ودفن رموشها بزيت الخروع، نظرت في المرآة، حدقتها في حدقتها ولا شيء سوى التطوّح على الأراجيح.

تقف على طاولة الفصل وتصمت، تكتب أسماء الذين يثرثرون فيكتبون لها في الأوتوغراف "هل أنت شخصية

قياديّة أم منطوية؟!" تدفن رأسها بين كفّيها. وبعد وقت طويل تعرف أنّه من الممكن لو أغلقت الباب عليها وبعـد شـرب القهوة وأعقاب السجائر، وبالموسيقى الخفيضة، أنّ تنجح في كتابة قصيدة. مرَّ وقت آخر ولم تكتب سوى مطلعها:

"أنا لا أصلح لشيء".

*

مدرِّس الفرنساوي

مدرِّس الفرنساوي طويل جدًا ونحيل ويناديها بستّ الحلوين.

عندما كان يخطّ بقلمه الرصاص بين الحصص كان يرسم وجهها، ويمّي خدوش وجهها خربشات القطّة نونوش؛ و "نادر" أيضًا يدللّها بذلك اللقب؛ وسعد باشا كان يقول لها نونش إلى جانب ستّ البنات، وحبيبة بابا، وستّ الحلوين، كان يقول ذلك وهو يطوّحها قبل وقوع "الحادثة"؛ بعد الحادثة لم يطوّحها، ولم يعد يخبئها في عباءته، أو تنام معه في فراشه، وإن ظلّ يناديها بالألقاب نفسها.

مدرِّس الفرنساوي كان يكتب على الطالة وينظر لها، لا تدقدق بكعبها ضجرًا، لا تعبث في شيء، تنظر فقط باتجاهه والألم هناك أسفل بطنها، وهي تحبّ أنّ تجلس وحيدة في طالة الدرس، وإذا شاركها أحد، فلن تكون إلاَّ "هندًا" لأنّها ليست أجمل ولا أذكى، هي فقط ترافقها كظلّ، الألم لا يزال يعجزها عن الحركة. ينظر لها.

لا تنظر لي لن أقوم ولن أجلس، ولا أريد أنّ يصفّق لي أحد هذا النهار، وقل لأبي ما تشاء عن شرودي، على الحائط آثار لوحات مدقوقة، سأتابع الشقوق، وفي اللوح الأسود خدوش الطباشير، تشبه خدوش وجهي، وعلى الدرج قلمي، خطّ أشياء كثيرة ثم محاها، والألم أسفل بطني، وتحتي بالضبط شيء لزج لونه أحمر تنتظره كلّ البنات في الفصل أنّ يزورهنّ، وها هو يختارني، أمي ستقول إذا تسلّقت الكازورينا "ضمّي ساقيك أنت كبرت". وهو حين يجلس على فراشه سيهزّ رأسه موافقًا على كلامها مطالبًا إيّاي أنّ أغسل قدمي على الحوض المنخفض والألم الذي يفاجئني على طاولة الدرس سيزورني كثيرًا .

وستتحدّث أمي عن صوتي الذي يجب أنّ يبقى منخفضًا، وعن فمي الذي يجب أنّ يغلق تمامًا خاصّة في حضور ضيفاتها، وعن ضحكتي التي يجب أنّ تكون قصيرة ومهذّبة وبمناسبة، وسيبتسم البعض إذا تركت شعري ويقولون لها "كبرت ندى وصارت عروسًا" . أمّي لن تفرح، أعرف ذلك من انقباضة ملامحها حين تتكررّ الكلمة، وستقف أمام

مرآتها، وتراقب انثناءات خفيضـــة تطفـــر تحـــت جفنيهـــا، وستتحدّث معه بأسف عن أشياء صارت لا تليق بسنّها.

وأنا هناك على طرف الوسادة، مســـموح لـــي أن أبكـــي وأتساءل "لماذا تطردني من حصّتك؟ لماذا غيّرت رأيك؟ فلم أعد ملاكًا وأنا مكسور نصـــفها، أو تصـــفّق "تـــري بيـــان" ويضحك البنات وأنا أخرج وبجوار الحائط أقـــف، لأنتهـــز فرصة وقفتي لأرى هل ما في إصـــبعك ذهـــب أم فضّـــة؟! أتناول عقب سيجارتك خلسة لأدسّه في حمّالة صـــدري ثـــم ألملم أشياء تافهة أخرى وأحملها كتذكارات منـــك، ســـأبكي والمنديل المكتوب عليه حرف اسمي "نون" ملقى تحت قدّمي بجوار الحائط ولا شيء يجفّف دمـــوعي، و"هنـــد" هنـــاك، بمواجهتي تداعب خصلة شعرها وقد تربت على ظهري بعد قليل، وتدعي محبّتي. أنا لا أجرؤ على سؤالك "ماذا فعلـــت لماذا تخاصمني؟ ستلقي بالطبشورة حين أحاول ذلك، ومـــن الزجاج المكسور تشوّح بيدك بالضبط تصيب الهدف فتخرج القطعة وتنظر باتجاه مروقها، وتقول: "لا أريـــد أنّ أســـمع صوتك نهائيًا، مفهوم؟". عند انحناءة الســـلّم، فـــي طـــرف المعمل، على المقعد كانت "هند" تحدّثك وتنظر لي بطـــرف

عينها وتضحك بهاتين العينين الضيّقتين الحـــادّتين، وبعنـــاد، بعناد فقط كان عليّ أنّ أواجه كلّ شيء. أمّي التـــي تجلـــس أمامه وتحتسي الشاي ببطء وبينهما محابسها التي ســـرقتها، ومنديل يدي وحروف اسمي مبقعة بالدم وورقة صغيرة كتبُت فيها "لماذا تخاصمني! أنا لم أفعل شيئًا ، أنا أحبّك".

أشياء أخرى لم ألمحها، كنت بالباب أستعدّ لأقبّل أبي قبلة الصباح وتستعدّ أمّي لمراقبة هيئتي قبـــل أنّ أخـــرج، لكـــن لمحت هذه الأشياء بينهما فوقعت عيني على الأرض، لم أكن خائفة، كنت خجلة فحسب، ولا أعرف كيف أرفع عينيّ فـــي عينيه لأقول له "أنا بنت مثل كلّ البنات". وقفت طويلاً.. لـــم يقل لي تعالي، لم يرفع عينيه تجاهي، ظلّ يهـــزّ أصـــابعه، ويلقي أعقاب السجائر بتوتّر ولا ينظر لي.

أنا لم أفعل شيئًا في الفصل، كنت أفكّ جديلتي في حصّـــة الأشغال وأضع محابس أمّي المذهبّة فـــي رأســـي فتتســـابق البنات لتصفيفه. أنا اليوم عروسة، ويدها التي كانت بجـــانبي تخزّ في الإبر والخيوط وتنقّط دمًا مسحتها في منديلي، قبّلتها بين عينيها وقلت لها يا "هند" نحن شقيقتا دم، فأخرجت الخبز الناشف من حقيبتها وقرأنا الفاتحة عليه، ثم عند انحناءة السلّم

كانت تحادثه وتنظر لي، وأمّي التي تقف الآن بيني وبين أبي وبينهما المحابس كانت ترمقني بالنظرة نفسها. كنت سأردّها، فقط أفكّ شعري مرّة واحدة كي يدرك أنّه لــيس مخــدوعًا، سيراني بعدها جيدًا ويناديني ثانية بستّ الحلوين، ويكتب لي في الأوتوغراف "أنت ملاك".

بعناد أكثر أبتلع دموعي ولا أتكلّم ، أمّي لا زالت تشرب الشاي ببطء وفي عينيها انتشاء يهزمني، بنــت مثــل كــلّ البنات، تسرق من صوان أمّها أشياء مبهرة لأنّها بلا صوان ولا حاجيات، وتكذب أحيانا لأن أحدًا لم يكتب لها خطابــات، وصارت لا تريد أنّ تصبح عالمة فضاء ولا طبيبة، صارت تطمع أنّ يكلّمها مدرّس الفرنساوي بعد أنّ قال لها آخر مرّة "لا أريد أنّ أسمع صوتك نهائيًا".

منامات

بمهابة،

كان يطالعني في الأحلام

كما ينبغي للموتى أنّ يظهروا

باسمين.

وبهدوء يضعون في أفواهنا قطع السكر،

ويلوحون في بياض الملائكة،

ويخرجون من جرابهم أمنياتنا المستحيلة.

طالما رأيتهم، يأتون، يعبرون، يشدّون خصلات شعري، ويتورّم رأسي ثم يرتطم جسدي بكلّ شيء ويتناثر فوق المسافات. بقع دمويّة داكنة، كنت أراها في المرآة تكبر وتنفجر، ويأتي، يلملمه، ويعقفه، يحملني بين ذراعيه، ثم يفرد عباءته ويطويني.

قلت له ذات يوم "أريد أنّ أصبح عالمة فضاء"، فضحك. وقالت أمّي "أفسدتها بتدليلك" ولم تعبأ، وحملّتني بين ساعديك، وضممتني، وأشرت بيدك للزهرة الساهمة في فلك السكون. قلت لك "ذقنك تؤلمني"، ومازالت بصيلات الشوك على وجنتيك تخدش لحمي الطري.

الفصل طوب أخضر لبن، عال، وفوق هامته سقيفة من الأخشاب، والنوافذ واسعة، تفتح صدرها للسماء، قال وهو يمسك بمعصم كفي "انظري". كان وديعًا، وطويلاً، اضطرّ لأن يقرفص حتّى يكون في مستوى طولي، ولمحت عينيه لأوّل مرّة عن قرب، كانتا صافيتين وكانت بصيلات الشوك تبتسم لي، والعرق ينبض في معصمي، ينقره بإصبعه ويتحسّس النبض وأنا أضحك، وأحبو في كلّ العوالم التي كنت أحلم باقتحامها، والنبض والدقّات تتعالى، وحين أغلق الباب و أشعل الثقاب في عود البخور، وتصاعد الدخان الداكن، كانت دقّاته في صدري تتعالى، وكان صوت النبض يأتي من بعيد. قال إنه صعد، وكانت السماء مفتوحة، وفي السماء الأولى كانت الملائكة، وفي الثانية كانت الرسل، وفي السماء الثالثة كان الجحيم، وفي الرابعة كان الموت، وفي السماء الخامسة كانت السدْرة، وفي السماء السادسة كانت الصفْوة، وفي السماء السابعة كان العرش..

وتحسّست نبضي، كان الربّ تعالى يدفع بأمره إلى النبض في الشريان، بكيت، بكيت، ذلك النشيج ظلّ يلازمني حتّى بعد أنّ فتحوا النوافذ، وانتهت الحصّة ، والدخان لونه أزرق

داكن، و "هند" الجميلة ذات الضفيرتين تقول "إنه يرعبنـــي"، سأكتب له خطابًا كي لا يغلق النوافذ، ثم إنّ صدري يــؤلمني من بخوره.

وحين قرأه علينا، قال لها اخلطي بيضتين بكــوب لـــبن وملعقة سمن على الريق، وسيطيب صدرك، وخجلت هنــد، ولم تعد تشكو من صدرها.

وحين قالت له إنّ "إميل" ابن الناظر مريض، ضحك، ولم يعلّق، وحين زرناه في بيته رأيت صورتها علـــى الجـــدار، كانت جميلة جدًا فأحببتها، ونظرت إلى معصمها حيث يكمن النبض، رأيت صليبة زرقاء مدقوقة، ابتســـمتُ. كانـــت أوّل مرّة آكل فيها السجق، و "إميل" يحمل لنا القطع الصغيرة في لفّات الخبز. قال لأبي "إنّها ذكية جدًا، وستصـــبح ذات يــوم شيئًا عظيمًا"، فذهبت في اليوم التالي إلى المدرســـة، وعلـــى رأسي غطاء أبيض كما رأيته في صور العـــذراء، وكانـــت الماء ترسم لي عبر النافذة وجوهًا بيضاء لكائنـــات خرافيـــة تشكّلها الحسب. قال "إميل" إنّ العذراء تجيء إليه في المنام، وإنّ جلدها شفّاف وشديد البياض، فدعوت الله بجلـــد أبـــيض

مثل وجه العذراء وأن ينبت لي وردتين في صـــدري مثـــل صدر "هند".

كانت خدوش وجهي تزداد تحفّرًا، ولا شيء ينفع معهـــا، وظللت أبكي حتّى وأنا بصحبتها نتلصّــص علـــى الـــرواق الرخامّي ونرقب صنابير المياه وهي تسيل في القناة المنحدرة حتّى بالوعة الماء. شمّرتْ هند ساقيها وبدأت أنفاسنا تلهــث ونحن ننظّف الرواق، سكبنا المسحوق على الأرض، وبـــدأنا بحكّ الطمي فوق الرخام، وأعيننا تراقب شيخ المسجد الـــذي قد ينهرنا إذا ضبطنا بداخل الرواق، كان صدر "هند" يعلـــو ويهبط، وقلبي ينزوي ويبكي ودخانه يتصاعد مـــن شـــقوق الحائط الطويل الداكن، وكفّ مدرّس الفرنســـاوي تتحسّـــس وردتي هند باشتهاء، والنوافذ مغلقة والضوء خافت، والسماء لا تزال مختفية، والماء ينزلق تحت قدمّي فأســـقط، والشـــيخ يصرخ "أخرجا لعنة الله على من أنجبكما، لطستي الدنيا يـــا ملعونة منك لها". يلقي بأحذيتنا في كلّ الاتجاهات وساقا "هند" ترمحان، وبقعة دم تقطر من أنفي فأشعر أنّ وجهـــي يـــزداد خدوشًا، يفتح أبي عباءته ويضع رأسي على ساقه والثلج على أنفي فانام. في النوم أتسنّد على حائط، الحائط يمتدّ، يصـــبح

ليلاً صيفيًا رطبًا والنافذة الوحيدة التي أخبئها لا تزال مفتوحة على السماء، أتململ في فراشي وأراقبه.

الشعاع الضئيل يكبر ويكبر ويقتحم الغرفة، صار في مواجهة فراشي تمامًا، أنقل الوسادة وأفتح صدري وأعانقه، أراه دائمًا وجهًا يبتسم ، وربّما يحادثني وربّما يشبه وجهه ببصيلاته، التي تخدش أرقي، يدور من سحابة إلى أخرى ويعانق الغيوم الكثيفة، يترك صدري ثم يأتي صوت "عـواء" من هناك، حيث كان يركض فوق القشّ المبللّ، وكنت أعرف أنه يربض دائمًا هناك، وأهنأ، بجرح طولي أسفل إحدى عينيه، حيث كان يتعارك على إحدى وليفاته، صار عجوزًا، أعرف ذلك من عينيه فقط، لنهما لم تعودا تلمعان، وأذناه أصابهما بعض الانكسار، يعوي، ثلاث ليالٍ وهو يعوي، كان فيه شيء مبحوح مؤلم، وكنت أعرف عواء الذئاب في حقل الذرة المجاور، كانت جارحة، متحفّزة. عـوى كثيـرًا تلك الليلة، هبّت الخادمة من فراشها. إنّها دائمًا تهبّ هكذا "اللهمّ اجعله خير". إنّه يعوي منذ ثلاثة أيام ولم يحدث شيء، قلت لها ذلك فبدت كأنّها لم تسمعني. قفزت إلى حيث رُشقت الآنية على حافة النافذة، تطلّعت إلى القمر، شربْت ثم عاودت

التسلّل إلى الأرض حيث افترشها ونامت، قلتّ لها "لا بدّ أن نقتله"، لم تردّ، "أصابه الجنون".. "كلّ يوم يفزعنا هكـــذا؟!"، نامت، سمعتٌ صدرها يعلو ويهبط، ولم أنم وسمعتها تهذي، "شفشق الشربات الكبير انكسر". حاولت النوم، كان جســدي مازال القمر يستبيحه، ونمت ثم رأيت أكوابه تتحطّم. ظللــت في المنامات أرى الجدار الطويل الداكن نفسه، أتسنّد عليــه وأنفي ينزف، أتكومّ بجانبه مثــل بقعــة دم وحلقــي ملــيء بالنشيج، وكانوا يأتون.. يجذبون الجسد المتكومّ فيتحوّل إلــى جثّة مصلوبة، وقلبي مقبرة ينبت فيها العشــب مــن جثّتــي المتحلّلة، وعلى الرغم من ذلك، لم يتركوني، جاؤوا، كــانوا تلك المرة يطلّون من حدقة امرأة بعيون جاحظة ودميمة.

وجاءتْ، فعلتْ الشيء نفسه، لطمتني على وجهي، قلــت لها "الأولاد ملء كلّ الشوارع". كانت النافذة أمامها مكسورة، والزجاج المشروخ يعكس كلّ شيء فــي الفنــاء المواجــه، وكانوا يركضون ثم يطرحون الكرة الحــائرة فــي الســلّة. لطمتني على وجهي، كانت بدينة وبيضاء، وعيناها تستديران مع إطار نظارتها، وجدائل شعري تتساب مع الملــح الــذي تساقط من الحدقات وبلّ أطراف شفتي. جذبتني مــن ياقــة

القميص، كان أبيض، ويدها ثقيلة ومليئة بالخواتم الجاحظة بنتوءات، دفعتني إلى الجدار، فانفلت الزرّ الرقيق من ياقته ولمحت جسدي، وكان أكثر بياضًا، بلعت الملح، ورشفت انكساراتي، وفمها يصعد ويهبط، وعيناها تروح وتجيء بين الجالسات في المقاعد والنافذة المكسورة وباب الفصل حيث كان يرقبني بتوتّر. وأحيانًا بمحبّة، أتمسح في عينيه، أرى أنفي ينزف، أنتظر أن يضع رأسي على ساقه، أنّ تسرح كفه إلى شعري، لكنّه لم يفعل، يزداد اضطراباً كلّما تحرّك فمها. وضحكت "هند" في آخر الفصل واستمرّ النزف، وتساقط الدم على القميص الأبيض وأحسست بوجهي تتكاثر في الجروح. قال بتردّد: "إنهّا رقيقة ومهذّبة". تبتسم له بسخرية وازدراء وتقودني أمامهم، تجذب محبس شعري المفضفض، وتلقيه على الطاولة، ثم تنظر أظافري وتقول "حوافز" ثم تحكم غلق الباب في الغرفة شحيحة الضوء والطاولة المتربة، والزجاج نصف المكسور والمقعد المتهالك، وتمضي الساعات طويلة وأنا أسمع الركض والصراخ والضحك من ثقوب الضوء، والكرة مازالت في الفناء الملاصق تركض بين الأكفّ، وتسقط في السلّة المتدلّية. انكفأت على الورقة، رسمت

الأسهم والقلوب الصغيرة نفسها، "مهذّبــة ورقيقــة" أنقشـــها بالوجد نفسه، وأضحك وأدور حول نفسي، وترمح اللوحـــات على الدار، قانون نيوتن وجدول مندليف، والقلوب المكسّــرة تعكس آلاف الأسهم "لماذا تنظر لي هكذا؟! ولماذا لا تســأل غيري طوال الوقت.. هل تحبّني؟!" أطقطق بحــذائي وأنـــا أخطو مطرودة من حصّتك وأقف علـــى الجـــدار المواجـــه للفصل وأحسّه أسود وطويلاً، وداكنًا، أستند عليـــه، تتبعنـــي صرختك "وقحة وقحة".. "رقيقة ومهذّبة"؟! أضحك بســـخرية وهي تضبطني متلبّسة بتهمة التلصّص على فناء الصبية وهم يتبادلون رمي الكرات في السلّة المعلّقة. رأسي يتورمّ وأشعر بقطرات الدم تسقط على الطاولة.. وأراهم يعبرون، بعيونهم الجاحظة يعبرون ، ما بين وعيي وموتي ويجذبون أطـــراف جثّتي باشتهاء.

*

حكاية

في الثالثة والأربعين من عمره يبدو جميلاً ووسيمًا له عدّة أبناء.. يشكّلهم كما يهوى، يلتفون حوله كالأرانب فيحكي لهم ما يشاء من حواديته.. ويصدّقون!! يتلحّسون في أقدامه يقرأ معهم مجلة البعكوكة.. ويضحكون ثم يُطيّرهم في أحلامه كالعصافير. له امرأة جميلة أكثر، يقولون له: ليلى مراد، فيفرح. ويقولون : إنّها حبيبته كانت له منذ ولادتها ويشير إلى ندبة في مفرق شعرها ويبتسم، لأنّه علَّمها الأدب على طريقته. ينام على حجرها، فتغنّي له. كانت له أيضًا حديقة كبيرة، زرع على حوافها المستكة وعلى الشرفات علَّق الياسمين، وكان بإمكانه أنّ يزرع فيها ما يشاء من ورود، أرض واسعة وفلاّحون يقبّلون يده وآخرون يلاحقونه بالدعوات، نسيتُ أنّ أقول لكم إنه كان طبيبًا، في يده مشرط، وفي ثيابه بقعة دم. كان أحمق للغاية. فكيف يترك هذا كلّه ليقلّب بين النشرات والصحف عن أشياء تؤلمه؟! وكيف يسمح للجلطة أنّ تفاجئه وهو يتحدّث عن الفساد والإحباطات وخيانات الأصدقاء، كان ساذجًا يعتقد أنّ هناك "لافتات كبيرة" تصلح للتفاني فيها.

كان يكذب أيضًا مثل كلّ الرجال، ويحدّثني بالليل وأنا أعبث بشعره عن بلاد بعيدة سوف أركض فيها، وعن شعور بلا ضفائر أو محابس، ووجه به أسنان متّسقة وأنف أصغر قليلاً، وبيت يسع رجلاً آخر معي. نُلوِّح له في الصباح فيُلقي علينا الورد، وفي المساء نشاركه الثرثرة ثم نتركه لينام على حجرها. سوف يفرح كثيرًا حين أصبح عكّازه وهو يسعل، ويلاعب صغارًا يقول إنّهم أعزّ منّي، كان يكذب ويغمض عينيه ليغازل ميتةً أكثر شجنًا تليق برجل مثله.

*

ولد صغير يدقدق بطبلة

ولد صغير، كان يجلس بجانبي على حافة النافذة، ومــن الحديد نطلّ على الفراغ بساقينا ونغنّي:

"من تحت شبّاكنا هوه الحليوة اللّي فات".

يدقدق على الطبلة وأشاركه الرقص، أصحبه إلى المدرسة في يدي، وحين تضربه البنت التي أسمها "عبير" على وجهه وهو يقول لها "عمرك دقتِ الفستق؟! عمرك دقتِ البنــدق؟!" وستضع يدها في خصرها وتتلوىّ وهي تشتمه "أبوك بيشرب خمرة"، "أنت عيّل"، "عيّل خالص" سترفع حاجبًا وتنزل آخر، وأنا أقفز فوق ذراعها وأقضمه بسنّة وحيدة. بعدها تقرّر أنّك لن تدخلها بعد ذلك أبدًا، وستحملك لتصير ابنًــا لائقًــا بهــا، مهذّبًا ورقيقًا باسمًا وحانيًا تقبِّــل صــورك وتمــرِّر علــى صويحباتها شهاداتك من "مدرسة القلب المقدّس". المفــروض أن أكون معك منذ أعدَّت أمِّي الحقائب وقالت بحــزم "كلّنــا تعلّمنا في المدارس الداخلية" قضم أبي إشفاقه وهــو يســوقنا أمامه، "بنجور، كُومن سافا".. انحناءات خفيضة ينحنين بهــا بنات بضفائر وأقمطة بيضاء ونوافذ مسيّجة بالحديد، وأوامر صارمة بأن يكون ظهري مفرودًا وصوتي خفيضًا، وان أتعلّم

كيف اخلع ملابسي وأبدّل ثيابي، لا أحد سيبتسم أو يجامل شقاوتي، والأمّ "تريزا" تجلس في الحديقة، نُقبّل يدها ونردّد وراءها "الحبّة الميتة تشقّ الأرض بمنجل الحياة، سبحان الربّ الذي أعطاها القوّة، سبحان الربّ الذي أعطاها الحياة. إنّه أعطاها ذلك كي تصير نافعة للآخرين"؟. لكن الأشباح لن تكفّ عن مطاردتي في الممرّات وهي تردّد التراتيل الغامضة التي أسمع صداها في مناماتي، مقبضة، وسُعالي يخيف الناعسات في الفراش المجاور، سأظلّ رغم افتراقنا أكتب لك الرسائل وستظلّ فتى حقائب، وأنا التي أفرغت حقيبتي مبكرًا أجلس بجانب اثنتين في الشرفة لانتظارك.

لا تخاصمني. سأصالحك بأن أضع رأسك على حجري وأغنّي لك، "من تحت شبّاكنا هوه الحليوه اللّي فات". لا تشدّني من شعري لأنّني أمشي بجانبك على الشاطئ بشورت قصير، لماذا صرت تكرهني إلى هذا الحد؟! لأنّني صرت أطول منك كثيرًا وفمي أصبح أكثر استدارة رغم كلّ الخدوش، وفي صدري وردتان مثل وردتيْ عبير؟!

الولد الذي كان يدقدق لي على الطبلة كبر الآن،ترشّ ستّي الملحات وترقيه بعروسة من ورق "من عين أبوك واللّي

يكرهوك"، وستسحبه أمّي بعيدًا عن يدها الخشنة والحصوات المرشوشة، لن تقول له "عجوز وخرفانة.. متى تريح نفسها وتريحنا"، ولن تدع الله أنّ يأخذها قبل أنّ تصبح ثقيلة هكذا، لأنّه يغضب ويحبّها، ولأنّها لم تصبح ثقيلة حتّى الآن، فهي ترى بوضوح، وتستحمّ وتضفر شعرها وتغسل ثيابها ثم تصلّي الفجر وتعبث في مسابحها، وتحت وسادتها أوراق الحنّاء، وفي شرفتها القلل معطّرة بالمستكة، وربمّا بزهر الليمون إذا أزهرت الحديقة، ستعدّ له "الكسكسي" وتفرك العجين بأصابعها، وتغنّي له "منت تحت شبّاكنا حنَكَهُ ينقّط عسل". سيصفق لها حتّى وهو يملأ العين والبصر، ويعرف أنّها تفرح بأشياء حقيرة جدًا، قطرة لعينيها، زجاجة عطر رخيص، وتشارك أمّي في تذكّر أوجاعها في حضوره.

الولد الذي كان يدقدق على الطبلة قال إنّي كافرة، وقذف بزجاجات البيرة من رفّ الثلاّجة على الأرض، وسعد باشا الذي رآه، لم ينظر له، دخل حجرته وأغلقها جيِّدا وأدار مؤشر المذياع وكان الخُميني يخطب "ليس دمنا أغلى من دم الإمام الحسين الذي سال في سبيل الإسلام"، وعمر التلمساني

يقول للسادات "سأشكوك لله"، والغرفة التي تعبأت بالدخان لن يجرؤ أحد على فتحها.

في الطرقات المعتمة، يجري الآن ملء السمع والبصر، يرتدي المعطف الأبيض وأصابعه الطويلة لها رائحة الأحماض، وستركض الممرّضات وراءه، وربمّا يهمسن بعد أنّ يمرق ويركض، لأنّه يخجل من أن ينظر في عيونهنّ، سيدّعي الحزم، ويصدر أوامر صارمة، يحاول أنّ يبدو قاسيًا، وكان أصغر من ذلك حين جاء بها، ترتدي ثوبها الأسود وفوقه شالها الحرير، ومن أذنها يتدلّى الحَلَق المَخْرَطَة ورائحة العطر الثقيل في منديلها الذي تجفِّف به دموعها، وفي قدميها اللّتين تجريان في الطرقات المعقَّمة "جزمة" جلد طبيعي، وهو يسندها من سلمة إلى أخرى ويصعد بها، وحين تفتح له أمّي غرفته، وهو يبدو من بعيد ناعسًا تحت الملاءات البيض، وتقول بأسف حقيقي "لا يريد أنّ يراها" سيعود بها، منديلها أكثر دموعًا، تجرجر ثوبها وتجلس في الطرقة تبكي وتشهق وتقول لنفسها "مادام هوه بخير.. خلاص".. ستجلس أمّي بجوارها ولن تبكي، شعرها مشدود للوراء بالمحابس، أمامها كوب ماء لا تشرب منه

سوى رشفة واحدة، وتضم يديها إلى صدرها وتنظر للسقف، ولن تصدّق أيًّا منهما أنّ الراقد هناك يمكن أنّ يموت هكذا مبكرًا، سيعود بعد بضعة أيّام، ربّما يقبل أن يراهما بعد محايلة. ستقول له إنّها، مهما حدث، أمّك، وستدخل جدّتي "ستّي" تجرجر ثوبها وتجلس تحت قدميه وتقبّلهما وتبكي، وحين تخرج، سيقول للملة إنّه كان صغيرًا جدًا عندما أخذه أبوه من يده وقال لها "أبنك وحيدك يحتاج أمّ"، وكانت فتحة صدرها مليئة بالعقود؟! فتعلّق بها، لكنّها جذبت ذراعه من عنقها، وقالت: "مالي وأنا ومال وأنا ومال خدمة العجائز وهمّ العيال؟! خذ ابنك واذهب للعظمة التي في مقطفك". حمل ابنه ووضعه في حجر الشريفة، وبعدها لم يرها.

كان الأطفال يقولون له إنّها تزوّجت فلانًا وإنّ علاّنًا طلّقها ولم يذهب إلاّ عندما صار العيال كباراً، وقالوا إنّه لم يبق لها زوج على قيد الحياة ولا أولاد، وإنّ الرّجال عافوها رغم ما يحكون عن جمالها، فقد صارت شؤمًا على من يعاشرها. وإنّها مهما حدث أمّه، تبكيه الآن بحرقة وهو يخرج محمولاً إلى قبره.

"بوّابته يا أمّ السبع لوحات، من تونس الخضــرا وكيلــك مات".

"بوّابته يا أمّ السبع مسامير، من تونس الخضــرا وكيلــك مين".

تولول كما اعتادت بإصبعيها روحة وجيئة، وتزداد البقــع الداكنة في وجهها، تكشف رأسها الأحمر بالخضاب، وتجلس أمام شرفتها وعلى سلماتها القديمة بالطوب اللّبن، تطلّ بوجه صغير مرسوم بعناية، وبعينين لم يفقــد الحــزن لمعانهمــا، وبجسد تتأمّله حتّى وهي في السبعين تجرّ فرشتها وتجلــس لتعدّد، وبجسد تتأمّله حتّى وهي في السبعين تجــرّ فرشــتها وتجلس لتعدّد، وفي صدرها العقود، وفي يديها الحنــاء، ولا يزال شعرها جدائل طويلة. أمّي ستقول "مثلهــا لا يكبــر.. ترمي كلّ شيء وراء ظهرها ولا تحمل للدنيا همًّــا"، بينمــا تحمل هي الهموم تجاعيد دقيقة تحت عينيها، وتنظــر ولــدًا صغيرًا كان يجلس بجواري في النافذة.

اثنتان، كلّ واحدة في شرفة، واحدة تختزن في صــوانها الملاءة التي لفت بها جسده وزجاجة العطر التــي اقتســمتها بينهما، نصــف لغســله، وفــي الأدراج رصّــت الأثــواب

والمناشف البيض؛ وأخرى أعدّت للموت زجاجة المسك المكّي الصغيرة والبخور والروائح التي لا أعرف من أين أتت بها، وأمتار القماش الأبيض المطبق بعناية. واحدة تحدّثني عن قصّة شادية وصوت ليلى مراد وعن فستان زفافها المشغول بخيوط الحرير، وتاج "فريدة"؛ وأخرى تحكي عن فستانها اللميّع المقصَّب بالتنتنة وأنّها كَفَتْ على أبي الغربال يوم مولده وقالت "بنت" خوفًا عليه من الحسد. واحدة تشكو من الصداع النصفي وتجفِّف دموعها في الشرفة، والياسمينة تلفظ على أرضها مَوْتِى جَّددًا؛ وأخرى تعدَّد وهي تحّك يدها بإصبعها:

"لو كان دمع العين يجيب حبيب، كنت أبكي بدل الدموع صديد"

"لو كان دمع العين يرجعهم، كنت أبكي لما الدمع يوجعهم"

يمرّ زمن الحزن ويأتي الانتظار. ثلاث صرن يجلسن تحت ياسمينة الشرفة، واحدة اسمها "ستّي" والثانية كان اسمها الملكة ناريمان والثالثة ينادونها الآن "ندى"، والولد صار الآن رجلاً يفكّر بالهجرة إلى مكان ما، يغلق عليه باب حجرته ويرفع سمّاعة الهاتف ليتحدّث في أسرار تخصّه مع امرأة قد

يحكي لها أنّه يحبّني وقد لا يتذكّر، يضمّ يديه من وقت لآخر ليسأل..

"وبعدين وبعدين ما المطلوب منِّي بالضبط؟!" نسلّم على بعضنا بعضًا هكذا، يدي في يده ويتركني هكذا. أعيد قــراءة خطاباتي وخطاباته..

"نادر.. نجحت في المدرسة. أبلة فوقيّة قالت لماما.. خلّي بالك من نفسك. ماما بتقولك.. وتعال بقى". "أخي نادر، بابــا اشترى لي عصفورتين، وماما حلوة بتقول لــك مــاتخلعش البلوفر الشتوي دلوقت".

"نادر. ماما ضربتني وبابا سافر شغله.. أنا مش عــايزه أقعد معاها.. مش بتحبّني.. تعالي في الإجازة مع خالو".

"إذا نجحت في الابتدائيّة بمجموع كبير، بابا سيشتري لك بارودة رشّ.. هو بيقولك ولمّا تيجي في إجازة نصف الســنة عايزة علبة ألوان ميّة.. وأتغطّى كويّس.. ماما بتقولك".

*

"أخي الحبيب نادر، ماما بتسلّم عليك وبابا وهــانم وعــم محمّد الغفير، وماما تهنّئك كلّ الهنا على تفوّقك الباهر فــي شهادة نصف العام، وتدعو لك أنّ يخلّيك ويحفظك بمســتواك

الرّفيع وتنصحك ألاَّ تخلع ملابسك وأنت عرقان وتقي نفسك من البرد لتقي نفسك من الأمراض، وإليك هــذه الفــزّورة.. رجل أجرته خمسة جنيه في الشهر ويصرف كلّ يوم جنيهين كم بقى مع الرّجل.. مع تحيّاتي".

*

نادر أخويا الحبيب.. أنا بخير وأتعلّم هذه السنة إنجليزي.. ماما أحضرت لي الأستاذ سيّد يعطيني درسًا في البيت وأنــا سعيدة بذلك، وأذاكر باستمرار وماما للأسف حزينة على وفاة راشد باشا "خالها"، ستِّي بتسلّم عليك كثير السلام، ونرجو أنّ تهتمّ بمذاكرتك وإليك هذه الأبيات من الشعر كتبتها في وفــاة جدّي – الله يرحمه:

"فتحت شبّاكي رأيت ملايين البشر
لابسين ملابس الحداد قلت إيه اللّي حصل؟!
هية الشَمس ماتت ولا انطفا نور القمر؟!
العود اللّي كان بيطربنا انكسر منه الوتر"

*

"أخي الحبيب نادر.. كيف حالك، وحال مذاكرتك إن شاء الله تطلع من الأوائل مثل كلّ عام، أنا بخير ومامــا وســتو،

هانم أنجبت بنتًا وأحضرنا واحدة اسمها سميحة تساعد ماما بدل هانم.. أنا بخير وإن شاء الله سأكون من المتفوّقين".

*

"قرّرت أنّ أكون عالمة فضاء، بابا قال إنّ هذا ممكن بشرط أنّ أكون متفوّقة في الرياضة والإنجليزي والعلوم وبابا بيقول لك إن شاء الله قريبًا سيجعلك "خارجي" بدلاً من الداخليّة، وستأتي ماما وأنا لنكون معك، وهذا يسعدني طبعًا، وإن شاء الله ظروف عمل بابا تساعده لأنّه لا يريد أنّ يغلق العيادة هنا، سيسافر لنا كلّ خميس وجمعة، وإن كنّا لا نستطيع فراقه. لكن إذا كان هذا في مصلحتك هو موافق، وإليك هذه المعلومة: الصاروخ "بومارك" هو من الصواريخ المضادّة للطائرات ويحمل في مقدّمته قنبلة ذريّة لتدمير الصواريخ عابرة القارّات، وهناك الصواريخ التي تطلق من تحت سطح الماء إلى الأرض، وقد أطلق الصاروخ "بولارس" في يوم ٢٠ من يوليو ١٩٦٠ من الغوّاصة الذريّة على عمق ٢٠ مترا تحت سطح الماء، وكان أول صاروخ يطلق من غواصة وهو مزوّد برؤوس ذريّة، ويمكن توجيهه

إلى أي هدف على سطح الأرض مداره ٢٤٠٠ كم.. المخلصة ندى".

*

"نادر.. لا تحزن لأنّك لن تستطيع أنّ تدخل ثـانوي مـن الخارجيّة، للأسف يا نادر بابا مريض، وهذا ما لم تعرفه وإن كنت ألاحظ أنّ صدره يوجعه، وقال لماما إنّه يريد أنّ يموت في بلده ونحن بجانبه، أنا أبكي باستمرار يا نادر ولا أتصورّ أنّ يموت بابا أبدًا. مادّة الفيزياء متعبة جدًا للأسف وهكذا فقد قرّرت أنّ أنسى مسألة الفضاء هذه، كما أنّـي لا أحـبّ أنّ أصبح طبيبة أطفال كما يتمنّى بابـا، أعتقـد أنّـي سـأكون شاعرة. مدرّس العربي قال إنّني أكتب شعرًا جمـيلاً وبابـا يقول "في وقت فراغك"، لكنّي لا أحب أن أصـبح طبيبـة، وإليك آخر أشعاري:

"أنّي راحل من دنيا الهنا   إلى دنيا الشقاء والفنـــا
"راحل من عذاب حبّي   راحل من عذاب قلبـــي
وأترككم للأيّام للأحلام   ربّما تغيّر شيء من الذي كان

*

"أخي الحبيب نادر.. أرجو أنّ تذاكر جيِّدًا فأنتَ أمل بابـــا وماما، ولازم تتفوّق من أجل أنّ يفرح بشيء، بابا حزين جدًّا لأنّه في خلاف مع الحزب، ويرفض بشدّة تحالف الحزب مع التّيار الديني ويقول إنّ الانفتاح والسلفّية سيفســدان الــوعي اللّيبيرالي، خالو نصحه أنّ يبتعد عن السياسة لأنّــه طبيــب ناجح والأحزاب لها تحالفات لمصالحها حتّى ضــدّ مبادئهــا لكنّه يصرّ أنّه لا معنى للنجاح في مجتمع غير ديمــوقراطي. بابا أصبح مديرًا للمستشفى. قالوا لي ذلك في المدرسة، لكنّه ليس سعيدًا، ويقرأ هذه الأيّام كثيرًا ويدخّن ومامــا تنصــحه بالابتعاد عن التدخين لأنّه يفسد صحّته..".

"نادر كيف حالك وما أخبارك، أنا بخير وآخــر شــقاوة مازلتً شعرًا ومدرسّ الفرنساوي معجب أيضًــا بشــعري، وهذه آخر أبيات كتبتها أهديها إليك:

حورس ما بك صامت
انهض، تكلّم، اصرخ
أترضى أنّ يهان ترابي
وتباع أرض الآباء والأجداد
وأمام القتلة تستباح أعراضي"

"للأسف يا نادر أحوال بابا تسوء هذه الأيّام، لـذلك هـو يعتذر لك عن موعده الخميس القادم.. ماما خائفة عليه جـدًّا خاصّة بعد أنّ أرسل له الحزب قرار فصله. ورغم أنّ بابـا قال "للباشا" في التليفون "بيتي وبيت أبي وجدّي استقبل سـعد زغلول والنحّاس باشا وكان له شرف المحافظة على المبادئ الحزبيّة الأصيلة"، فإنه لم يقتنع بردّ الباشا بأنّ الضـرورات تبيح المحظورات وأنّ التحالف وقتي، وأصـرَّ بابـا علـى ترشيح نفسه في الانتخابـات كوفـدي مسـتقل ومعـارض للتحالف، وقال لخالو المبادئ لا تعرف هذه الضـرورات. لا أفهم كثيرًا يا نادر، فقط أدرك أنّ بابا يواجه وحـده أشـياء كثيرة، ويبدو مضطربًا ولا ينام، يغلق عليه بـاب حجرتـه ويفرك أصابعه ولا يكفّ عن التدخين.. المهمّ أنـت كيـف حالك، أنا بخير، وأذاكر رغم هذه الظروف بجدِّيَّة، أحضرت أوتوغراف ينتظرك أن تكتب لي في إحدى صفحاته، كتـب بابا لي في أوّل صفحة:

"صاحبي من النّاس كبارًا
وجانبي الجهَّال أهل الفضول
واشربي نقيع السمّ من عاقل

واسكبي على الأرض دواء الجهول"

وكتب لي مدرّس الفرنساوي:

"أنت ملاك، كيف تسكنين الأرض وتتكئين على خشب الطاولات الحقير".

وكتبت لي هند:

"إذا مالت الشمس نحو المغيب وتباعدت عن القلوب فهل يكون في الذكرى مغيب".

*

- ٢ -

اثنتان في المبنى الرابع بمدينة الطالبات

عند بائع اللّعب عروسة، تدور حول نفسها، عند بائع اللّعب، وقفت، اشتريت أرنبة وكلبًا،

وقبل أنّ أمضي بعيدًا، سألت امــرأة عــابرة، هــل أشتري له عروسة؟ مضت مسرعة ولم تجب، وضعت الكلب فوق المكتب، والأرنبة في حضني، وكتبت على الحائط اسمًا جديدًا لابنتي التي أنتقي لها الأسماء، في الصباح، ستضــحك البنات كثيرًا إذ رأينني بجديلتين وبيجامة بهــا ورد، وفــي حضني أرنبة وعلى الحوائط خدوش، وقلوب، وفــي بطنــي تجويف فارغ يسمّونه "رحمًا".

البناية العالم لم تدفع أيًا منهما لإلقاء نفسها، رغبتا في ذلك ولم تفعلا، عجزت الأولى لأنّهم علّموها فقط التطلّع عبر الأراجيح تنزل وتهبط، ولا تطير أو تسقط.. كان أسمها كما تعفرون الباذنجانة، اختصرته أخيرًا إلى "نون"؛ أمّــا الثانيــة فأجّلت تلك النهاية قليلاً ريثما تُضفّر شعرها الأجعد ضــفائر صغيرة متراصّة، وتغنّي لحبيبها "روحي وروحك حبايب من قبل ده العالم والله".. كان اسمها "ص".

كان هناك في البناية نفسها أخريات، يركضـــن بـــين الغرف الضيّقة.. بلونها الأصفر الباهت، والأسرّة المزدوجة في طوابق تتّسع لأحلامهنّ.

بإمكانهن أنّ يضحكن، أو يبكين، أو يحصـــين عـــدد الحشرات المطهوّة مع الوجبات، وأنّ يتحصّن مـــن القـــيء بأكواب الشاي والأرغفة الجافّة.. بإمكانهنّ أنّ يسمعن شجار العاملات البدينات في الطرقات كلّ صباح، وبـــين الســـباب اليومي كان الماء ورائحة المطهّر يدخلان من تحت الأبواب، ودخان القمامة المحترقة تحت النوافذ يتسلّل مـــن الفتحـــات، وأجراس الوجبة الصباحيّة تدقّ، والمشرفات يتفقّـــدن نظافـــة الحمّامات بأصوات حادّة مختلطة، وأربـــع بنـــات يتقاســـمن أكواب شاي، ويبتسمن لأربع سنوات طويلـــة، قادمـــة فـــي الغرفة (رقم ٨١) البلوك الرابع مدينـــة الطالبـــات، وحـــين يخرجن سيمررن على المخازن والكافيتريا وغرفة التليفـــون والزيارة والإدارة والأمن ويقابلن ثلاثـــة أبـــواب رئيســـيّة.. يمرق منها الجميع، ساعتها ســـيكون النيـــل لـــيس بعيـــدًا، والجامعة أقرب، والطوار الذي تمشي عليه الأخريات يســـع خطواتهنّ.

*

.. لم تعرف "ن" وهي جالسة على أوراقها وفي يدها قلم أنّها حين وضعت سنه في أوّل الطريق بدأت به المتاهة "مئة عام بحثًا عن مخرج". كان الفتى اسمه زياد، والبنت لا اسم لها، ربّما كان اسمها "نون" نصف دائرة محدَّبة.. أشبه بوعاء تسقط فيه نقطة، مرَرَقَ أوّل رجل في حياتها يلهث بين الأروقة ويستبدل مجلّة حائط بأخرى ويدقدق مع الطلبة على البنش، ويردّد مقاطع من أغاني يصعب حفظها، تتحدّث دائمًا عن سجون وحمائم ونسائم وبشائر والغلابة الشقيانين، تحاول كلّ يوم أنّ تتغلّب على مخاوفها، ستفتح عينيها بثقة.. ستمدّ يدها لتمسك بيده، ولن تخاف، سترفع وجهها يرى كم هو جميل، وبلا خجل ستحكي له عن أبيها، كان مناضلاً ويتحدّث مثلّه عن الفساد والإحباطِ.. وستقول له إنّه مات، بالجلطة، ربّما يربت على كتفها مثلاً، حينئذ ستحكي له عن خدوش وجهها وهي تعرف أنّ عينيها تبرقان بحزن كلّ انكساراتها. ربمّا يرفع وجهها بين يديه ويقول لها وهما يركضان على الطوار "أنا أحبّك".

لكنّه كان يتحرّك بسرعة، يروح ويجيء، ولم يمهلها وقتًا كي تقول شيئًا، فقط تذكَّر بعد أعوام طويلة.. أنَها كانت موجودة دائمًا، فقال لها: أنت نقيَّة جدًا، وأنّ هذا شيء بـــالغ الندرة وفي المجمل هي بنت محترمة.. أربعة أعوام لم يشعر بها أحد، تنبش في دواخلها، "مهذّبة ورقيقة"، تمـــارس قمـــع أحلامها بانتظام، وتعوِّد عينيها تلك الانحناءات التي تواجـــه بها الحياة، وديعة كما تمنّوا لها، وتحادث نفسها بانتظام عـــن أخطائها، ونسيت كيف يكون الكلام من طول صـــمتها، ولا ترى بين المدرّجات سوى سهم طولي يشير إلـــى المســـجد، تبكي وتضمّ شعرها في ضفيرة، تطيل غطاء رأسها كلّ يوم كي لا يـــرى منهـــا أيّ تفاصـــيل، حـــين تقطـــع صـــخب المحاضرات بوحدتها ستتبع السهم وتجلس إلى جوار الحائط. المسجد عبارة عن ركن بين حائطين، عـــن يمينـــه بوفيـــه، تتصاعد منه رائحة القهوة، والي يساره ممرّ ضيِّق يُفْضـــي إلى دورة مياه للطالبات، ولوح خشبي يكـــوِّن ركنًـــا ثالثًـــا، وستارة تغطي مدخل الطرقة ومدخل المسجد، لا أحـــد هنـــا غيرها، وطالبة في نقاب أسود تلمحها دائمًا تصلِّي الضـــحى وبعد عدّة نوافل أخرى تجلس لقراءة القرآن بصوت خفيض،

قد تحدّثها بعد أنّ تنتهي من صلاتها عن عذاب القبر أو علامات يوم القيامة أو تعطيها كتابًا عن التبرّج وأذكار الصباح والمساء، فتطيل ثوبها أكثر، وترتدي قفّازًا، متعفّفة عن السلام والكلام.

ورغم كلّ ذلك تواصلت المنامات. كان "نادر" يلطمها والدم ينزف من فمها، وتفتّح كلّ الخياطات التي واراها الزمن، وجاء رجال كثيرون.. كان فيهم مدرّس الفرنساوي، وناظرة المدرسة التي صار لها شارب عريض، يأتونها ويجذبونها من شعرها ويركلونها بالحجارة وهي تركض وتصرخ فلا يستيقظ أحد، لأنّ سماع الصرخات لم يعد يرعبهنّ، كأنّ المبنى المكتظّ بأنفاس متراصّة صار لا يهتمّ فيه أحد بذلك الصراخ، يركضون باتّجاه جرس الإنذار كلّ ليلة، مغص كلوي، كابوس، معركة بالأحذية، سباب، وهيستريا جماعيّة للصراخ بعد نوبات من الضحك والرّقص في عنابر فسيحة أو ضيّقة.

لكنّ الرّجال الذين استوطنوا أحلامها لم يعودوا يركضون وراءها فقط، صاروا يلقون بها فتهوي ثمّ تسقط حركة ارتطام جسدها بالأرض، في البداية كان توقظ

النائمات، فتستجيب لحركة أيديهنّ لرفعها عن الأرض، وحتى بعد أنّ استبدلت الفراش الأعلى بالأسفل، وبعد أنّ قرأت كلّ التعاويذ، كانت تستيقظ فتجد نفسها على الأرض وتشعر برضوخ جسدها وأنفاس ثلاثة وجوه على الأسرّة هادئات، فتعلمت أنّ تلملم مناماتها دون أنّ تحكيها، لأنّها كانت متكرّرة وقيلت كلّ التفاسير الممكنة حولها، من أوّل عُقَد الذنب والاضطهاد حتى الرّغبة في الانتحاء كإيذاء للجسد لمعاقبة الأب الهاجر المذنب الذي تركها تهوي وبقي هائمًا في فضاء بعيد.

"تعالي".

قال: اخلعي ملابسك، كنت لا أزال أخجل من الزغب الذي علا ساقيَّ وتنامى بين مفرقهما، نفضت التراب من على الفراش، وفردت الغطاء، وتفحّصت طبقات الاتّساخات والعناكب فوقه، وضعت الوسادة الوحيدة التي لها لون خليط من لبن وريق وبول ومخلّفات شديدة القتامة أسفل ظهري، الغرفة أضيق من "غرفة الأربعة" في مبنى مدينة الطالبات، الفرق الوحيد أنّ لهذه رائحة طحلب وعفن ورطوبة.. ومكدّسة بأوراق وبلا أيّ أثاث، وخلف بابها تقبع أمّه في

الردهة.. قال: اخلعي ملابسك، وكان يخلع سرواله بسرعة، ورائحة فمه مليئة بالكحول، وضرسه المتورمّ له طعم الصديد، مدّ لسانه عميقاً في فمي وجذبني تحته، لوّث دمي عدّة أوراق على الأرض، خرج عاريًا ليبول، وعاد وفي يده سروال قديم لأمّه،

قال: نظّفي نفسك.

"تعالي يا صفاء".. "تعالي" أمضي وراءه.

كلّ ليلة تقودني خطواته، نتعثّر في الأعمدة، يركل كلّ شيء في طريقه بحذاء به أكثر من ثقب، نمشي في الحارات الضيّقة، لنصل.

البيت المجاور خرابة ما، أحجار ومخلّفات وجرذان تطارد قططًا تموء في اللّيل، ويتعالى صياحها، والبيت المواجه خرابة أخرى، وكائنات دقيقة تسر فوق جسد ميت، والنّساء يجلسن، بدينات، يفتحن أفخاذهنّ ويّكبِّن في وجهي، ورذاذ ماء يتناثر من فوق، وصوت ضحكات غامزة، امضي محتمية بذراعك، الغرفة العارية.. والأرض والأوراق ومطفأة الدخان والزجاجات الفارغة، تفتح حقيبتي وتندفع لملئها.

"تعالي" هذا الحلزون يخيفني، معتم ومترب، وفي كلّ سلمة عطب، وهو يركض بي كلّ ليلة، يطرق الباب بعنف، تسبقه رائحته، تفتح، زاحفة على الأرض، ساقاها متورّمتان، يسحبني على باب الغرفة المواجهة وهي تنظر لي باستفزاز، فأرمق الأرض المتربة وأتابع صرصورًا يختبئ في طرف ثوبها.

التراب يحفّ بكلّ التفاصيل: أبحث عن مكان يقصيني عن عينيها، أشعر بالضآلة والخزي، تنظر لي بتحفّز، "يمكنني أنّ أعود".. "أعرف الشارع.. سوف أعرفه".. "لا. لا تأتي معي، أنا سأمضي وحدي"، تعطي لي ظهرها وتزحف حتّى فراشها ولا تتكلم، يدخلني ويغلق الباب، يركل الصناديق الورقيّة بقدميه، يفتح ويغلق، يخرج علبة ألوان وأكثر من فرشاة يبدو عليها التيبُّس، أفترش الورق الذي جفَّ عليه دمي والغطاء المتّسخ، وأضمّ ساقي ولا أنتحب، بهدوء أتعرّى وهو يقول:

"اخلعي ملابسك"، "يمكن أنّ تشربي بعض البراندي"، أبحث عن مطفأة الأعقاب، أشرب لأحكي له إذا تطوّحت من

الإعياء عن أمي وأبي وبنات أخريات في المبنى الرابع بمدينة الطالبات، أقول له:

- "أبي كان صانعًا للطرابيش.. ربّما كان موسرًا في يوم من الأيّام.. كانت له زوجات متتاليات، آخرهنّ أمّي، صورته على الجدار كانت ببدلة وياقة بيضاء مُنَشَّاة، وطربوش أحمر كان كَهْلاً دائمًا.."

- "ماذا كان يعمل أبوك؟!".

"لطخ".

يضحك، تعجبه الكلمة أكثر فأضحك معه، ننظر له في بروازه المعلّق في حجرتها رجل أسمر، يرتدي سترة عسكريّة برتبة مُجَنِّد، ملامحه غائمة لزمن قديم.

تقول أمّه لي إنّها لو ماتت فسيتركها تتعفّن، انفض صرصورًا جديدًا من على طرف ثوبها وأبدّد بعض عتمة فراشها وأحوال أنّ أغيِّر لها ملابسها.. لكنّه لا يمهلني، يسحبني من يدي ويقول لها "لن تموتي.. سأموت قبلك"، يدفعني أمامه ويغلق الباب خلفنا بحدة،

- هل تكرهها؟!

- لو لم تكن عاجزةً لوقفت على ناصية أيّ شارع تستدرج رجلاً ينام معها.

- أنت قاسٍ.

شرب ما تبقى في الزجاجة وقال:

- لا أحتاج رأيك، أنت عاهرة مثلها.

ركلت الورق والتراب، اللّوح المفترض أنّ تكون عليه صورتي، خرجت، وكانت الأوراق التي سال عليها دمي تحته ولم يقل انتظري، قال: في داهية.

ركضت في الشوارع.. كان منتصف اللّيل، باب المدينة الجامعية مغلق، والمبنى الرابع نائم، والنيل أمام سميراميس يفرغ عربات وضجّة ونساء يفتحن صدورهنّ ويمضغن انتظار المارّة، ضئيلة، وسمراء، ببنطال جينز وبلا كحل ولا مساحيق، من يغامر في اغتصابي، المجنِّد الذي اقتسم شايه معي على الرّصيف المقابل تطوِّع بلمسات متفرقة لجسدي، دخّنتُ مزيدًا من السجائر، وسعلت.. ودفوف زفاف أسطوري على بعد خطوات وأكثر من عقال يلتقط فتيات صغيرات يتطوّعن بالإشارة لهن والفجر الضبابي مليء

بفضلات العطور والدخان والأطعمة التالفة، وثمة لزوجة تترك رغم الشتاء أثرها على الجلود.

*

"منطلقة".

قالها وابتسم، "منطلقة" وكان يلوك الكلمة في فمه باستمتاع، وعيناه تلمعان بمحبّة، وثلاث بنات يجلسن على طوار النهر، يراقبن المراكب الصغيرة والمارة والمقاعد المشغولة بالعشَّاق. مرّ النّهار، فافترقن وجاء يوم جديد في المدرج.

كانت البنت المحشوّة في بنطال ضَيِّق وفي يدها سيجارة تنظر لي باستفزاز، هل تكرهني؟! هل تعرف أنّي أحبُّه؟! صوتها مبحوح قليلاً، وجسدها ضئيل، وشعرها مُشعث تضمّه في ضفائر صغيرة، صوتها يجلجل في الممرّ واسمها تتداوله ألسنة كثيرة، اسمها "صفاء".. تقف دائمًا بمواجهة روحي بتحدٍّ، وتقطن أعلى فراشي ولا تسقط مثلي في المنامات، يصافحها بعينيه ويقول "منطلقة".. بمحبة تفزعني، أقارن بين تفاصيل جسدها وجسدي، أخبِّئ حيرتي وهي تتفحّص الرجال بنديِّة، قالت "ليحيا" الفلاّح الأسمر الذي

لا يغيِّر قميصه ناصع البياض، ولا يخلع نظّارته، "شعرك رومانسي، ألا ترى في الحياة أفقًا أوسع من التغزُّل في المحبوبة..؟!" أحسَّ يحيى بالحرج، خلع نظّارته فظهر جحوظ حدقتيه، مسحها بُكُمّ قميصه ثمّ أعادها، وحينما أعطاها ظهره ابتسمت لارتباكه، لماذا يتحولون إلى مساكين ومراهقين بجوار جرأتها؟!

تقف عيناه حول نظراتها المقتحمة.. بجرأة، ويقول منطلقة.. فأستند على ذراع "منى" وأدّعى أنّي أسندها، وفي غرفة المكفوفين أمسح دمعتي، لكن "منى" كانت ترى الدموع في حلقي وأنا أقرأ بصوت عال، وأدَّعي التماسك أمام سمعها المرهف.

يدي في يد "عَلْيَا" آخر اليوم، يمرّ "نادر" مرتبكًا، يقول أشياء عن أحوالي ومذكّراتي، ونقودي، ولا تخجل "عليا" أنّ تسأله بجدِّية عن أخباره، وتجبره أنّ ينظر لها وهو يتحدّث عن الفارماكولوجي والتشريح، وتهديه أوراقًا أعرف أنّه لن يقرأها، وهي تتابع ذكرياتي عنه كأوراد يومية، تهديه تسجيلاً جديدًا يغنّي لجمل الأمّهات التي انتظرت طفلها وعاد مستشهدًا فبكت دمعتين ووردة، ولم يهدها شيئًا، سيبتسم

وترتعش يده ولن يصافحها. وحين يفارقنا سَنَتَسَنَّد معًا على الطوار ونواصل المشي إلى المبنى الرابع بمدينة الطالبات.

كان فراشها لا يزال خاويًا فوقي.

قلت لعليا هل يحبّها؟! لم تعلِّق. خلعت ملابسها ببطء ودسَّت جسدها في الفراش المقابل.

أكملت:

منطلقة.. يقول منطلقة، وكانت عيناه تمسِّدان شعرها بحنانٍ.. هل يحبّها؟!

صرخت "عليا"

- هل الإحباط غاية لديك؟! هل نختار الطرق المغلقة كي نقف أمامها عاجزين.. هذا كفوف.

كان صوتها جارحًا وخرج صوتي حادًّا.

- وهل أنت أيضًا مكفوفة، لماذا تصرِّين على نادر وأنت تعرفين أنّه متردّدٌ باتّجاهك؟!

- هناك فرق كبير!

- نحن نصطنع المبرّرات الكافية حين نريد.

- أخوك اكتئابٌي، إنّه يسير باتّجاهي خطوةً.. قد يتردَّد لكنّه يسير

- وبعكس اتّجاهك أيضًا..

كانت "مها" نصف ناعسة عندما احتوانا بعدها الصمت الثقيل فقامت لتبدِّده، أدارت قميصًا جديدًا على جسدها وتمايلت. قالت "عليا": جميل "يا مها" يستحقّ تعبك، وابتسمت لها في استحسان فأسرعت بارتدائه أمام المرآة، ثمّ استدارت لنا مخبئّة فتحة صدرها بكفّ يدها، الجرح شكله غبي، ضحكت "عليا"..

هذا وهمك الخاصّ، تردَّدت العبارة في أذني.. "وهمك الخاصّ" ثمّ أطرقت وأنا أراه في اليوم التالي معلقًا للبيع في المشغل.

في المدرج، أنت البنت التي تقطن فوق فراشي تتجاهل وجودي باستفزاز، أجلس تلك المرّة بجوارها، أقضم أصابعي وأقول لها إنّ انتظار المحاضرة مملة.. لا تعلّق.. أكمل: مادّة المناهج لا تحتاج لمن يشرحها.. لا تردُّ .. أكرِّر... هل لخّصتِ منها شيئًا؟

تنظر لي ببرود، هل تعرف أنّي أحبه مثلها؟!، هل تكره وجودي؟!، أتركها حين يلتفّون حولها ويقتسمون السجائر وتتخبِّط أيديهم بين القفشات، ويتبادلون الدقِّ

والأغنيات التي لا أحفظها، يتحدّثون عن الثورة وعمال كفر الدوار وانتفاضة الجياع، ويتبادلون نكات جديدةّ عن الكافيار وفراخ الجمعية.

أشارك "مها" أذكار الصباح حتى يدخل المحاضر بسترته الأنيقة، ورابطة عنقه الملوّنة بصخب. يخلع نظّارته ويبتسم "صباح الخير"، يستفيض في تقسيم الأدوار في المجتمع، ويستطرد في التمايز النّوعي، ويدخل إلى الفروق الطبقية ويَعُرِّفُ معنى العدالة.. تُصَفِّق بشدّةٍ له، ثمّ تتبع خطواته باتّجاه المكتب، ويراها الجميع وهي تجلس بمواجهته.. تتناول سيجارةً وهو يشعل لها واحدةً، تبتسم بغموضٍ والدخان يتلوَّى في الفضاء.

تفترش "عليا" أرض الممرّ بين الفراشين، وهي بمواجهتها تسند ظهرها للفراش المقابل وأعطي ظهري للفراغ.

– أفَّاق يدَّعي كلّ الأشياء التي لا يعرف معناها.

تقول "عليا". فتعترض بشدَّة:

– الجهل والتخلّف هما اللذان يصادران كلّ الآراء من منطلق التعالي عليها.

بدليل ماذا تعتبرينه تقدّميًّا يا "صفاء"! بدليل السيجارة التي أشعلها لك؟.

- كلّ الذي ضايقك مجرّد دخان؟! حتى أنت يا "عليا" ضيّقة بهذا الحدّ؟!

- كلّ الأفاقين يتحدّثون عن العدالة والحرية، ويجدون في ذلك مدعاة لإنكار القيم.

- تخلّف، مجرّد مظاهر، القيم الحقيقّة التي نحتاجها هي العدالة والحرِّيَّة.. وليس مجرّد طقوس سلفيّة متخلّفة.

قلت "لعليا": إنّها لا تفكّر فيه وهو يحبّها. مشغولة بأستاذها التقدّمي، لا تستحقّ ظفره، قلتها بأسى، فامتزج الإشفاق بالازدراء في عينيها، وكان صوت "مها" من فوق الفراش يدندن بأغنية حزينة.

*

البنت التي تشاركني فراشي تُضَفِّر شعرها كقرويَّة.. خارجة من طست حمومها، وترتدي ملابس عصر النهضة، غالبًا هي ملابس أمّها التي تكتب لها الخطابات، تطيل كلّ يوم غطاء رأسها وتفتح فمها بتقعّر أزهري يرتدي طربوشاً.. كانت تذكِّرني بأبي وهو يتحدّث عن النعمة التي يصونها

الربّ من الزوال، ملّطخًا وجهي بأصابعه التي لا تزال فيهــا قوّة لأن تعلّمني الأدب والاحتشام والكــفّ عــن التطلّعــات المريبة لارتداء فستان يزغلل عين جارنا الذي يُصَفِّر لي في أوقات فراغه، ويرسل لي قُبَلاً في الهواء.

كــان جارنــا أول رجــل حَــدَّثني عــن مــاركس والبورجوازيَّة العفنة والنظام البطريركي وحرِّيِّة الجسد. حين تَطَوَّع ليعطيني درسًا في الفلسفة وعلم الــنفس فــي إحــدى السنوات الدراسيَّة، ثمّ مدّ يده من تحت الطاولــة فأمســكت الشياطين في جسدي، كنت ساعتها لا أزال أخاف من الــربّ الذي يرانا، لكّنني كفرت بأنّ الصبر مفتاح الفَرَج، وأنّ أحبذ عباده إليه الفقراء، ومن رضي فله الرضا ومن ســخط فلــه السخط. تحاول البنت التي تستلقي أسفل فراشي أنّ تضــيف إلى معارف أبي مقاطع إضافيّة "قل لو أنّ أهل القرى آمنــوا واتّقوا لأنزلنا عليهم بركات من السماء" تُعَلِّقها علــى بــاب الغرفة.. وتحشو أحاديثها بحكاية سويسرا البلد المترف الذي يكثر فيه الانتحار. والأمراض والأوبئة التي ترافق البلــدان الغنية .. وأرهقتني بتبتلاتها المسائية في تفــريج الكــروب. لذلك كانت أوّل من دفعت إليها بعضًا من المسقعة.. وأنا أراه

تماما وأرفعه بمواجهة عينيها، فأر صغير مقلي وَمُتبل مع خرطات الباذنجان المطبوخ في قَدْرٍ يكفي ألف فم في معسكر الاعتقال هذا، قلت لها:

كلي.. الفئران ليست نجسة وَحَلال أكثر من دجاج أميركا الفَطْسَان دون تحليل دمه بالشهادتين.. كلي..

.. ضَمَّت أنفاسها في كَفِّها كنتُ أعرف أنَّها ستتقيَّأ.

تحرزت "عليا" على الواقعة وأرفقت الشكوى بعشرات الإمضاءات، بصقت المديرة في منديلها لدى رؤيته، ثمّ بلعت ريقها لتقول: احمدوا ربّكم إنّ أكلكم مجّاني.. النَّاس لا تَجد في بيوتها رائحة الزيت ولا السكر ولا حتى لقمة الخبز.. وأنتم تتبطّرون على النعمة.

نغمس الخبز في الشاي القاتم ونطعم جوعنا حتى يأتي النسيان.. بعد أنّ دشّنت مقالات طويلة عن العدالة والثورة وتوزيع الأرزاق وماركس وعلي بن أبي طالب، دَوَّنت كلّ اللاّفتات اللاّزمة لمجلّة حائط مجيدة ثمّ نمتُ مرتاحةَ الضمير.

*

صوتها يجلجل في الممرّ

- لن أسمح لك بأيّ اتّهام حقير

- ممكن أفهم أين بتّ تلك الليلة؟!

- عند أقاربي، أصدقائي.. هذا ليس شأنك.

- بل هو عملي، وأنت ليس لك أقارب.

- عملك متابعة احترامي لحقوق الآخرين، وليس التلصُّص على أخباري.

- حسن السّير والسلوك.

- سلوكي أشرف من أيّة شبهة، وحتى لو كان غير ذلك، فهذا ليس شأنك، لديَّ ضميرٌ وعقل.

- الانحلال هذا لا يَعنيني.

علا الصوتان أكثر فلهثت باتّجاههما: "معلهش يا أبله معلهش".

تسحب البنت ذات الضفائر يدي وتلقيها بعيدًا عن كتفها، وتصرخ فيَّ: "أنا لم أخطئ كي تعتذري بالنيابة عنِّي"، كرَّرت "عليا" عبارتي نفسها للمشرفة.. وسحبتها بدلاً منّي إلى غرفتنا.

لم تكن تبكي، قالت.. قَوَّادة باسم الفضيلة تمارس قمع من تريد ودخَّنت أكثر وألقت الأعقاب بجانب فراشنا ثمّ

خلعت ملابسها دون أنّ تطالبنا بإغماض عيوننا، وَضَفَّرت شعرها المبلول ضفائر صغيرة وركلت أعقابًا جديدةً ثمّ خرجت. قلتً "لعليا" هل كانت معه؟ لم تُجبْ. وكانت "مها" تقول "خالد" مَرَّ عليَّ أمس.. قال إنَّه سيكلم أمّي، رجوته ألا يفعل.. أنا لا أصلح لشيء.

تَحسَّسْنا في صوتها الدموع، وكان صدى كلماتها يروح ويجيء، و"عليا" تتحدّث عن الحبّ الذي لم يعد أحد يجده وصحّتها والفل والموت، ثمّ ساد بيننا صمتٌ طويلٌ.

*

بار الشيخ علي ليس حقيرًا للغاية، غير أَنَّ روّاده، مثلي ومثله، يهتفون ضدّ ارتفاع الأسعار والبطالة في مظاهرات تنتهي بعربات أمن مركزي ومجنّدين يطاردوننا بعصيّ كهربائية..

وقنابل مسيلة للدموع، ويعلّقون لافتات كبيرة على أفواهم عن العدالة والثوريّة.. والعمالة لأميركا، ويقاطعون الكنتاكي والهامبورجر والفراخ المجُمَّدة، ويلتفُون في جلسات عبثية تتحدّث عن ماركس وتروتسكي والإحباط، كلُّهم يكتبون

قصائد متشابهة، حتى أوراقي لم تخل من مثل هذه الشعارات وأنا أتحدّث عن الالتزام الأيديولوجي وأدبيّات النصّ الثوري.

في بار الشيخ علي، يقرأ دائمًا أشعاره بعد أنّ ينهك كلّ طاقته في نسجها، فيقولون له.. "محاولات"، ويحدّثونه عن عبقريّة المثابرة. نشوته الوحيدة يستمدّها حين يحملونه على ظهورهم فيرتجل كلّ الشعارات اللاّزمة لإشعال مظاهرة.

- مشّ كفاية لبسنا الخيش، جايين ياخدوا رغيف العيش

- يشربوا ويسكي وياكلوا فراخ، والشعب من الجوع أهو داخ

- يا أمريكا لمّي فلوسك، بكره الشعب العربي يدوسك.

العرق على جبهته يتوهّج.. وبعد الركض وقذف الأحجار، نتوارى مكدودين نعدّ أسماء الذين تمّ اعتقالهم وأسماء المختبئين، فأراه يكبر.. يصبح رجلاً بحجم أحلامي.

في بار الشيخ علي، امرأة تغنِّي على عود أغنية واحدة "روحي وروحك حبايب من قبل ده العالم والله". حين

لا يكون ثملاً يفتح حقيبتي ويشتري لي عقدًا من الفل، ويقبّلني، فيضحك أصدقاؤه ويصفّقون ويزغردون ويظلّ يشرب حتى يقول لي من جديد..

"تعالي"

لابدّ أنّ نكمل اللّوحة.

نمشي في الشوارع المعتمة، قد يكون ثملاً لدرجة أنّ يفتح بنطاله وهو ممسك بذراعي على عربة أمن مركزي مرابطة أمام الجامعة الأمريكية.. يكثر من التبوّل أمام قسم شرطة باب الشعريّة، لأنّ الضابط النباتشي مغرم بتفتيشه تفتيشاً ذاتيًا ودائمًا يشتبه فيه، ويناديه بالشيوعي الكلب، والصول أيضًا مغرم بالتقاطه متطوّحًا في الشوارع ليبيت ليالي كثيرة في التخشيبة.

أشرب اللّيلة.. أكثر، لنهذي معًا.. بعدها نريح الورق الذي تيبَّس عليه دمي لنتشارك الهلاوس، حين نفيق صباحًا، يشعر بالصداع وأشعر بالقلق. عليَّ أنّ أواجه السؤال نفسه عن المبيت خارج المبنى الرابع في مدينة الطالبات، وعليَّ أنّ أتسلَّح بمزيدٍ من الصفاقة لأبصق على الأرض حين أراها، فتخشى المشرفة التورّط معي في المناقشة، وَعلَيَّ أنّ

أنسى الذي قاله، لأنّه بمرور الوقت ومن تكراره لن أشعر بالفجيعة.. كان أبون مُجَنَّدًا في حروبٍ كثيرةٍ، مات ومازالت لأمّه سيقان جميلة. كان يقرأ تروتسكي في الحَمَّام الذي هو عبارة عن قاعدة أرضيَّة للتبرُّز، ومسمار خلف الباب، وشبّاك به ليفة وصابونة، وكوع ماء، وحوائط تختبئ فيها صراصير وأبراص، لأنّ البيت كان قديمًا كما هو الآن بل ربّما كان أسوأ، فقد استطاعت أمّه أنّ تضيف بلاطًا للأرض بدلاً من الاسمنت وماسورة للدشّ بدلاً من الحنفيّة، وسدَّت كثيرًا من الشقوق، واشترت كرسيًّا لتجلس عليه وهي تدعك كعبيها. كانت ساقاها جميلتين، وهذا يكفي لاجتذاب السبَّاك الذي قام بالتعديلات، كما اجتذبت آخرين، كسائق الأوتوبيس الذي التصقت به. كانت كلّ الأجساد متراصَّة، وثمّة آخرون يتشعلقون في النوافذ، ورائحة العرق وسوائل أخرى كانت تفوح، والنّاس تتحدَّث عن السكّر والزيت والخبز.

وحدها كانت أمّه مواصلة الحديث مع من حولها، وثمّة رجل هو في الوقت نفسه سائق الباص تعطي له ردفين ثقيلين بمحاذاة يده التي كانت تتحسَّسها من الخلف، وآخر بمواجهتها، ملتصق بفخذيها، لأنّه متورّط في الأجساد التي

تدفعه باتّجاه أسفل بطنها،بينما كان صدرها مشاعًا لمن يتسنَّى له الاقتراب. كان واقفًا بجوارها ولم تره، قَرَصَها السائق في فخذها قبل أنّ تنزل فلم تكمل ضحكتها، لأنّهـا اصـطدمت بكوعها في رأس ابنها الوحيد.. مشيا إلى البيـت صـامتين، لكنّها في أوّل مشادة بينهما، قـذفت بصـندوق تروتسـكي وكفافيس وفان جوخ على السلّم الحلزوني: "يا الله يـا ابـن الكلب على برّه". صارت مشادتهما أقلّ، بعدها اعتاد البيـات في أماكن كثيرة متفرّقة، فرن الخبز الذي عَمِلَ به، زمـلاء دراسته، الرّصيف، القهوة، بار الشيخ علي. تَورَمَّت قدماها، صارت السّاق مثل جزع خشب، مازالت تصرّ على صرف معاش أبيه بختمها، تعدّ النقود القليلة وتقول إنّه يسرقها، رغم أنّ المعاش لا يكفي ثمن الخبر، تبكي وقد تخرج لـي مـن وسط كراكيبها كسرة وتقول "فينو" إذ كانت راضـيةً عنِّـي. بعدها تسألني أسئلة ماجنة، كنت لا أزال أخجل من الإجابـة عنها، لكنّها كانت تتحدّث عن خيبته وندامته باستفاضة وتقول إنّه طالع لأبيه.. خائب، وتومئ بإيحاءات جنسية واضـحة، وتحكي أنّها كانت تـدفع عنـه الأطفـال الـذين يمتطونـه ويتحرّشون به في الخرابة المجاورة، وتعتبـره سـببًا لكـلّ

أمراضها. هو أيضًا لا يخفي عنها ذكريات عهرها في طفولته، يتبادلان الاتّهامات حول كونها عاهرةً.. وكونه ليس رجلاً وتنتهي المعركة بأن يقذف مزيدًا من زجاجات البراندي الفارغة لتتحطَّم على الأرض، وهو يعرف أنها تزحف مخلّفة جروحًا كثيرة على ساقيها.

*

كان يعرف كيف يتكلّم كثيرًا ويضحك كثيرًا ويشاغب كلّ المحاضرين، ثمّ يخرج من قاعة المحاضرات مطرودًا ليجلس على المقعد الحجري ليؤكّد بلهجة أكثر عبثًا أنّ كلّ الأشياء تافهة، ومحبطة ولا إنسانية.

.. كلّ المهاترات أساسها طبقي، ينظر لغطاء رأسي ويكمل: هذا الربّ يحكمنا من موقع فوقي.. هم الذين اخترعوه لتظلّ أعناقنا متوهّجة إلى الأعلى، مسحوقة بتعاليمه.. هم الذين اخترعوه ليؤكّد هذه الدرجات.

كان كلامه مُستَفِزًا ومع ذلك لم أنكره، ولم أجرؤ أن أقول له إنّ العلمانيين والشيوعيين يتكالبون على الإسلام بهذا الغزو الفكري لعقول الشباب، وإنّ الإسلام أضحى غريبًا كما بدا، وإنّ إقامة دولة الإسلام فريضة وضرورة، وإن جُنْدَ الله

عليهم بإيحاء الجهاد المقدَّس، فالتكوين الدقيق والالتزام العميق والعمل الدائب هو السبيل الوحيد، لأنّ كلّ هذه المقولات كانت معلّقة على لافتات واضحة في أروقة الجامعة، ومعارض الكتب الإسلاميّة التي تخترق أناشيدها قاعات المحاضرات..

ارتبكت وقضمت شفتي لأنّي لم أكن أسعى لأيّ شجار معه، كنت أريد أنّ أقول له أشياء أخرى تجعله يحبّني، أنّ أحكي مثلاً عن جبني، وأنّي ربّما أخجل من جسدي، ربّما لم أكن أعرف كيف أكون بنتًا مثل كلّ البنات، لأنّي كنت دائمًا كتلة لحم معجون بها ملامح، وقد أبكي فيقول لي أجمل ممَّا تعتقدين، لكنّي لم أفعل في النّهاية أيّ شيء، وقفت مرتجفة و "عليا" تخرج من حيادها إلى الانفعال: ".. هل هذه السفسطة هي التقدميّة من وجهة نظرك؟ كان هناك نصّ فوقي، وكان النصّ يحتاج إلى تفسير، والتفسير إلى اجتهاد، والاجتهاد محكوم بعموم الآيات لا بتفاصيل أسباب النزول، وكان هناك دائمًا خلاف المسألة.. إنّنا نحتاج اجتهادًا يفهم روح النصّ ولا يخدم تطلّعات أحد ولا مزايداته".

ربّما تَمَنَّت أنّ يسمعها "نادر" ليختلفا حول معنى الحاكميّة لله، وكيف يصبح كلّ منًّا مقصلة للآخر باسم سلطة النصّ، لكنّه لم يسمعها، كان دائمًا يفرك يديه ويمضي مسرعًا ويقول لها إنّه مشغول بمشروع الإغاثة، وجمع التبرّعات للمجاهدين الأفغان عن طريق النقابة.. واتحاد الطلاّب.. تجفّف "عليا" توتّرها بتنكيس فناجين القهوة، والغناء لولد جميل تخلقه أحزانها. دائمًا في فنجانها فضاء، وفي فنجاني طريق طويل في آخره طائر أسود يحلِّق، وفي فنجان البنت ذات الضفائر بومتان.. كُلَّما قلبت فنجانها أكثر بانت ملامحهما المزعجة وواصلت "مها" التحديق في كَفٍّ يدها وهي تراقب خطّ العمر. وكانت "عليا" تشرح سيكولوجية الأحلام في ترميز الواقع في ضوء خطوط الفنجان.

تعبنا من التحديق في الفناجين فأطفأنا النّور، وفي الظلام كانت أصواتٌ كثيرةٌ تهمس وتتداخل.

".. نكوص يهرب منّي".. "الحبّ من غير أمل أسمى معاني الحياة".. ".. تعبت من شق صدري مرّة بعد مرّة".. "أنا لا أصلح لشيء.." "يريد أنّ يسافر إلى أفغانسان، يقول جاهليّة ووجوب الجهاد".

في الصباح كان صوتها مع المشرفة يتعاركان.

- اسمعي! لن أسمح لك بمثل هذه الاتّهامات.

- زملاؤك يتّهمونك.

- أنا لا أعرف إلا تفتيش المحتويات.

نثرت كلّ ملابسها أمام عينيها بامتعاض.. تفضّـلي، فتّشي، كانت قليلة ومهترئة، فـردت ملابسـها الداخليّـة.. أمامهنّ بتحدٍّ، بانت مزق كثيرة وهي تمسك بها عارضة أكثر من ثقب، "لست مترفة لدرجة سرقة زجاجة رومبا"، تركـت الغرفة والدموع تملأ وسائدنا.. هل يعرف أنّها تبكـي؟ هـل يحبّ دموعها؟ قلت "لعليا" إنّها ضعيفة مثلنا، دفعـت "عليـا" وجهها في الوسادة.. فأطفأنا النّور وأغلقنا النّوافـذ و "مهـا" تحتضن خيوطها وتدندن بأغنية حزينة.

"يا حبيبي أنا عصفورة الطرقات أهلي نطروني للبرد والساحات"..

*

كلَّما خرجت من المبنى الرابع مطرودة كنت أذهـب إلى هناك لأجده، كلّ روّاد بار الشيخ على مِثله، يتحدّثون عن

فترات اعتقالهم بفخر، ويتابعون أخبار الأشباح التي تكتب عنهم التقارير، وينتظرون مداهمات منتصف اللّيل.

في بار الشيخ علي، صمّمنا مجلاّت كثيرة للحوائط، واحدة لرسومات ناجي العلي، وأخرى عن مقاطعة السلع الأمريكية، ورابعة عن الصهيونيّة.. ونظّمنا مظاهرات كانت عارمة من حرم الجامعة حتى مبنى السفارة الإسرائيلّية.. نقوم بحرق العلم الإسرائيلي ورمي المبنى بالحصى.. ساعتها كانوا يتحدّثون عن عبقريّته في صياغة الهتافات وارتجالها، هذا قبل أنّ تسوّر الجامعة بحصون الأمن المركزيّ وقبل أنّ يفوز الإسلاميّون باتحاد الطلاّب.

وقبل الصدام الأخير. بعده صار يلقَّب في الجامعة باسم الشيوعي بغرض شتيمته، وبعدها صار يطردني كثيرًا في ليالٍ مظلمة فأقضي اللّيلة في الشارع مع مُجَنَّد سميراميس الذي يسعل مثلي، صار بعد أنّ عرف طريقه إلى المناطق التي يرغبها في جسدي، يمسح لي بالرؤية من قرب لبقايا الكافيار والنبيذ والدينارات التي يلصقونها على أفخاذ الراقصات، فأحدِّثه عن الإحباطات والضياع، وقد أحكي له

عن أبي صانع الطرابيش، وأمّي التي تعد جهاز عرسي مــن شقاء غربتها، أضحك فيضحك معي على أشياء لا يفهمها.

بين المدرّجات كانوا يرفعون لافتات تتحــدّث عــن الجهاد والمجاهدين الأفغان، في الطريقة قال إنّهــم مرتزقــة وحشّاشون وعملاء للهامبورجر الأمريكاني، وإنّهم يتاجرون باسم الدين لهدم الثورة العمّاليّة. على باب المــدرج تنــاولوا جسدي بين أيديهم واشتبكوا .. وكان ثمة هتافات من الجانبين "إسلامية إسلاميّة لا شرقيّة ولا غربيّة".

"عبد الناصر إصحى وشوف نهبــوا الثــورة علــى المكشوف".

لا أمن مركزيّ ولا صفّارات أو عصيّ كهربائيّــة. فقط عربة إسعاف تُوأوئ حدادًا قد يطول.

*

أنظر إلى وجهها بسمرته المتحفّزة، تشاركه صــخبه على الرّصيف وتقتسم معه السيجارة علــى دكّــة حجريّــة، ويغنّيان معًا أغنية لا أعرفها.. فأرشق أحجار هواجسي فــي الماء لتكبر وترسم مزيــدًا مــن الأســئلة.. لمــاذا يحبّهــا ويتجاهلني؟!، أتعارك مع مدرّس الفرنساوي فــي أحلامــي،

أطرد من حصّته، أقول له إذا لم تكفّ عن مغازلة هند فسأخرج، اسقط في الصمت والعزلة ومعاقرة رسوم فنجاني بجوار "مها" التي تُطَرِّز قميصًا جديدًا وتعده للبيع.. وتقول "عليا" اكتئابي يخاف التجربة ويرفض الحوار معي، لا يعطي فرصةً لأيّ تواصل، علاقته بالمرأة مليئة بالإرباكات، "نادر" غير قادر على التواصل معي أو مع غيري قالت ذلك بأسف، فسألتها البنت ذات الضفائر:

- لماذا تتحدّثين عنه باعتباره حالةً! إنّه ليس مريضًا، وحتى لو كان، فهو ليس مريضك، إنّه حبيبك.

فتساءلت بيني وبين نفسي كيف تعامله هي كحبيب، هل تخرج معه إلى أماكن أخرى.. هل تبيت معه؟! هل يحكي لها كيف أفحم المحاضر حين سأله عن معنى الاجتهاد في ضوء سلطة النصّ الديني المطلق، وحاصره بمفهوم الاختلاف مادامت كلّ النصوص بيّنة واضحة؟! أم يتحدّثان في بيت يضمّهما سويًّا، وينتقيان أسماء الأطفال؟! أعطت "عليا" لي وجهًا دامعًا وقالت:

أخوك غير متّسق مع نفسه، قلت له أنا لا أريد منــك شيئًا، قال إنّه يعد تقريرًا عن الحركة الإسلاميّة فــي ربــع القرن الأخير.

كنّا نسير معًا، أهداني أغنية، هل تعرفين ما هــي؟! "احنّ إلى خبز أمّي وقهوة أمّي". قلت له أنت لا تحبّني، أنـا لست على خارطة أحلاكم، مزّقت كلّ الخطابات التي كتبتهـا له عن محبّتي في النهر، وكان يتحدّث باستفاضــة عــن أنّ التغيير من داخل الجماعة غير ممكن علــى الإطــلاق، لأنّ الهيكل التنظيمي للجماعة مبني على أساس السمع والطاعــة. يقول إنّهم مجموعة من "العجائز" يهوون السلطة ويتنازعون عليها، بكيت أمامه لكنّه استمرّ يتحدّث عن الوعي العقلانــيّ والنقد الذاتّي والقيادة والجنديّة والإبداع والاتّبــاع. قــال إنّ الاستبداد ليس دولة فحسب بقدر ما هو عقيدة ومنهاج. قــال إن مجتمعاتنا تشبه جهازًا ضخمًا لإنتاج الاستبداد وإنّ شــرّ الاستبداد ما مورس باسم الإسلام، لأنّ الله خلق الأديان لترفع الأغلال عن الأعناق لا لتكريسها..

أعتقد أنّهم يضطهدونه أو يُهمّشونه.. أخـوك مهتـزٌ للغاية، ويده ترتعش ولا يقدر على الإمساك بـأيّ مشـرط، وقال إنّه سيبحث عن طبيب أعصاب.

بحثت عن طيف الملكة ناريمـان. إنّهـا الآن فـي الحجرة المغلقة على أحزانها، أو ربمّا فـي التـراس تحـت الياسمينة تعدُّ الأزهارَ للموتى، أو أمام النّار المشـتعلة فـي المدفأة، المدفأة لا تعمل.. إنهّا تحت فراشها تحلم بولد كـان يدقدق على طبلة صغيرة ويركض فتركض وراءه.

بكت "عليا" على وسادتي.. قالت ربّما يمارسون عليه ضغوطًا، قلت لها: كسر زجاجات البيرة من رفّ الثّلاجـة، قال لأمّي: لعن الله حاملها وبائعها وشاربها. وكان سعد باشا في الشرفة يتحدّث مع أصحابه عن اللّيبراليّة والديموقراطيّـة وحكومة العسكر. كان يخبط أصابعه ويقول "مصـر تعـيش أحطّ الحقب على الإطلاق"، قال ذلك ونظـر إلـى حطـام الزجاجات ثمّ دخل غرفته ومات.

قال نادر: أنا سبب هذه الجلطة.. فبكت الملكة.

قالت "مها": صدري يؤلمني، فأطفانا النّور وتنفَّسـنا ببطء بانتظار النهار.

*

في بار الشيخ علي، جلس ليلقـــي قصـــيدة جديـــدة، وكانوا يصفقِّون له للمرّة الأولى:

اثنين إحنا اثنين
وأنا جزمتي ما تسعش غير رجلي
وساعات تضيق زي الشوارع، وزي آخر الشَّهْر
وزي روحي لمَّا بتقولِّي: نتجوِّز
اثنين إحنا اثنين
وعارفك بتخونيني لمَّا باخلصلك
ولمَّا بتخلصيلي باخون
يمكن للحظة بسّ نتوحّد
ساعة ما بنام ويَّا بعض
نفس السّرير والرّعشة والأنفاس
ولمَّا بننتهي ونقوم
كلّ واحد بيلبس جزمته(١).

صرنا نتحدث عن الآلام الرومانيكيـــة والاغتـــراب واليأس والإحباط، ووعي النخبة، والســـلفّية التـــي ابتلعـــت السّخط الجماهيري صانع الثورة.. كنت أحبّه رغم كلّ شيء

وأراه جميلاً بعنين لوزيّتين وأعشق فمه عندما كـــان يقبّلنـــي وهو متيقّظ، أمَّا حين ننام ونتوحَّد كما كان يتحدّث بفصـــاحة عن الرعشة والأنفاس، فلا أعتقد مثِلَه أنّنا نكون واحدًا، يكون عادة ثملاً وجسده فوقي حمل من الهذيان، ويختبر ما تقولـــه أمّه عن رجولته بجولات يحرص على أنّ تكون كثيرة لأنّـــه لا يتعب، وبتوحّش يصلح لمناضلٍ وبفجاجة تصلح لثـــوريّ. يكون لحظتها بعيدًا جدًّا، يهذي باستفسارات عن مدى اقتناعي بأدائه، ولا يستطيع أنّ يحدِّد إن كان بـــداخلي أو بخـــارجي، يصرخ مصرًّا أنّ يبكي كلّ مرّة فأمدّ له صدرًا أموميًّا لأقنعه أنّه رجلي المبتغى.

صرت أكره هذا الفاصل التمثيليّ على جُثَّتي، وأسأل "عليا" في المبنى الرابع بمدينة الطالبات عن عُقْـــدة أوديـــب والفطام القسري والتخيّلات المتعلّقة بالجنس في الطفولة.

*

لم يعد هناك ما أطيل به ثوبي أو غطاء رأسي، لـــم يعد هناك حافة أصل إليها بعد أربع سنوات مـــن الاختبـــار داخل ظلّي، سوى أن يقول لي الولد النحيل الذي يخرج مـــن المحاضرات مطرودًا، الولد الذي تشاركت أنا ورفيقة فراشي

محبّته وكراهيته. واحدة تتأبّط ذراعه على كلّ التانـدات والمقاهي، وأخرى تراقبه من جحرها، فلم يعد هناك سوى كلمة عابرة يتذكّرني بها "أنا معجب باحترامك لذاتك رغم اختلافنا".. قدّيسة يا ندى، قدّيسة تدخلين الحياة وتخرجين منها طاهرةً وبريئةً صفر اليدين.

أنت نقيّة جدًّا وطيّبة يدثّرك بها الآن ويرسل لها بكلّ الرسائل التي لن تصلك أبدًا ..

قالت "عليا": أنت يا ندى تحتاجين محبّةً حقيقيةً، مشكلتك أنّك لم تمرّي بتجارب تفتح أفقك على الحياة، أخرجي من صَدَفَتِك وسترينه بحجمه الحقيقي.

قالت ذلك وكنّا نسمع صراخًا يأتي من مكانٍ ما، لم تكونا بومتين في الحقيقة، كانت ثلاثًا، تقول المشرفة: خالاتها وهي بين أيديهنّ تتطوّح، والجميع يحاول فضَّ الاشتباك لكنّها أغلقت باب الحجرة عليهنّ، وقالت: أهلها، ليس لنا دخل، وحين خلَّصْناها من بين أيديهنّ كانت تنزف وتسأل لماذا؟! ولا أحد يملك إجابةً محددَّةً، قذفوا بمحتويات دولابها في المزبلة قبل إلقاء قرار فصلها في وجهها، تركت أوراقه وخطاباته.

".. أحبّك يا طليقة يا شقيّة أحبّك.. هل تكفي أشعار الدنيا لوصف حالي...".

أجمع عقود الياسمين والخطابات والتذكارات الصغيرة.

تقول "عليا":.... كفاك أوهامًا إنّها تخصّها، حتّى لو كانت بحوزتك فقد كتبها لها. إنّه لا يحبّك. لم يفكِّر يومًا بك، هل أنت ساذجة لهذه الدرجة.. هل كان سيحبُّ شبحًا يتبادل معه النظرات من ألف فرسخ.. أنت مثل أخيك بالضبط هروبيان، نكوص نكوص.. نحن نغرق في الحاضر حيث يربكنا المستقبل.. أنت ونادر نسختان متشابهتان، كلاكما عاجز يدفن رأسه كي يرى ما يريد.

*

"تعالي"

نحاول الاستمرار في رسم الصورة، أخلع ملابسي ليراني من زوايا المرآة أكثر غموضًا، نتبادل الدخان، يسرق من كراكيب أمّه بعض الشاي والسكّر، أسمع صوت عراكهما "يا صايع هآكلك وآكل شراميطك".

لا يهذي بأيّة استفاضات عن أمّه وأبيه، الليلة بإمكاني أنّ أقول له إنّي طردت من المبنى الرابع، وإنّ أمّي التي لها خبرة برعاية العجائز في بلد نفطي قد تقطع مصروفاتي، وإنّ خالاتي اللاّتي يرفضن أنّ أعيش مع إحداهنّ أكّدن لها أنّ أخلاقي سيّئة، .. لا يريد أن يسمع هذياني مرّةً واحدة.

يتحدّث عن الوعي الطلاّبي وعمّال كفر الدوّار، أختصر له الحكاية وهو يغيِّر أوضاعي من زاوية نظره في المرآة يتفحّص صورتي.. صدر صغير، وجه أسمر نحيل، شعر قصير يفكّ ضفائره، يهمس لي بأنّ معالمي ذكوريّة تقريبًا، خصوصًا حين أدخّن، وهو يحبّ هذا.

.. يمارس مهاراته الجنسيّة عدّة مرّات وعلى وشك إعيائي، كنت أقول له إنّي لا أشعر بالسعادة بهذه الطريقة، يقول: أنت باردة، وأحياناً كان يرى أنّ هناك خللاً بيولوجيًّا في أعضائي، ويؤكِّد كلّ مرّة أنّني عاهرة وأنّه يعرف كلّ ذلك، وأنّ هذا لا يهمّه، المهمّ أنّ يكمل الصورة.

*

قالوا: أخوك اعتقلوه، ركضت مثل فأرة في نفق مظلم، مرقت "عليا" كانت تضع ثيابها في حقائبها قالت: أخوك لا أمل.. اختار طريقه على أيّة حال، نسيت أنّ أقول لها إنّ ثمّة امرأة، كان اسمها الملكة ناريمان، ترتدي ثوبًا أسود وتدور تبحث عن ولد لها في المعتقلات.

قالت: "مها" بالمستشفى.

باقة ورد على يدنا وخطوات رتيبة بممرٍّ طويل. كان خالد هناك، أسمر ودامع يسند رأسه على الحوائط، تحدَّث مع "عليا" عن التأمين الصحّي وأمّها المريضة بالروماتيزم، وكانوا يعبرون بأروابهم البيضاء، يلتفّون حول ذي الشعر الأشيب، يهمسون أحيانًا وتعلو أصواتهم أحيانًا أخرى كأنّهم يثرثرون في مدرج ما، يتابعون النبض، والضغط، والجلوكوز المعلَّق، ويستفسرون عن عدد الصمّامات التالفة، ويتأكدّون من أربطة الجروح ثم يخرجون، فتأتي مجموعة جديدة.

قالت "عليا": لو بقيت هنا ستموت.

فتساءلت وهل لو خرجت لن تموت؟! لو مسحت غبار السنين من يدها وتابعت سقوطها مرّة تلو مرّة من على

الأراجيح ونظرت في المرآة فوجدت كلّ شيء مضـــى ولـــم يبق إلاَّ أشباح!.. تجلس في شرفة قديمة تراقب عدد الياسمين الذي تساقط على الأرض، هل سيسترد قلبها عافتيه؟!.

قال خالد: سأكون بجانبها.

وحين تحرَّكت يداه بانفعال ليشرح الحالة، لمعت في إصبعه الدائرة الذهبيّة فأيقنت أنّ كلاًّ منّا قد صـــار بمفـــرده تمامًا، وأنّ نظرات "مها" المستســـلمة هـــي حافـــة اليـــأس والاحتضار. لم يعد بوسع أحد منّا أنّ يبقى مع الآخر، مضينا وتركناها. وفي الممرّ كانت جثّة تخرج محمولة بلا صـــوت، فأدركت ساعتها أنّ الموت هادئ جدًّا وقريب.. أيّـــام قليلـــة عبرت بعدها "مها" إلى رصيف التذكارات، كانت ودودًا جدًّا وبسيطة، تحمل كلّ القمصان التي لم تلبسها، وتهـــديها لنـــا، قالت انظري "البيبي دول".. انظري. جميل، أليس كـــذلك؟!، ثم مضت محمولة.. بهدوء كلّ الموتى وتركتهم يتواعدون.

وضعت "عليا" حقائبها في سيّارة حمراء، وقالت:ابن عمّتي، السنّ! ليس مشكلة، المهمّ التفاهم والعشرة. حدّثته عن المعوقات النفسيّة للتواصل بين الجنسين في الدول المتخلّفة.. واختلال مؤسّسة الزواج بسبب هذه المعوقـــات، قـــال: إنّـــه

يتفهّم، المحبّة ليست ضرورية على الإطلاق، صـــرت أفهـــم الحياة بشكل أعقل.

قالت "عليا" كلّ ذلك ثم ولَّت مسرعة وخرجت ناسيةً في غرفتنا، تفسير الأحلام، وسيكولوجية الإنسان المقهـــور، وأوراق أخرى كانت تُسَطِّر عليها أبحاثها.

تَفَرَّقَ كلٌّ واحدٍ في اتّجاه، تركوا للبنت – التي كانت تخبِّئ ملامحها بالأغطية، وتغمض عينيها علـــى الأســـى – شروخًا عميقة اضطرّتها أنّ تمزِّق كلّ ذلك في النهاية وتخلع كلّ الأغطية التي توشَّحت بها، وتراقب شعرها وهو يتـــرنَّح طليقًا ومتعبًا على أكتافها، تكتب في النهاية "ليس جرمًـــا أنّ تضل الطريق في غابةٍ مظلمةٍ"، ثم تمسح دمعتهـــا وتمـــزِّق القلوب والورد المجفّف وتلقي الفراشات الميتة فـــي درجهـــا للهواء.

*

أشعر أنَّني حاجزٌ يعبره حِصانُ أهـــوج، يقفـــز فـــي الهواء وتركلني حوافره كلّ مرّة فأسقط.

أحيانًا أصبح أنا الحصان، وأحيانًا أصـــير الحـــاجز، وأحيانًا كثيرة أعبر أرضًا بائرةً أسمِّيها روحي.

استراحت المشرفة البدينة من شكوى الطالبات الملتزمات من فجوري، لا أنام مع إحداهن في الظلام، ولا أتجسَّس على أجسادهنَّ في الحمَّامات، ولا أراقب حجم أثدائهنَّ إذا خلعن الحمَّالات، أنا فقط بدينة، لا أهتمّ بإذن المبيت، ولا أخبّئ رائحة فمي، لأنّي وحدي أبتلع ما أشاء..

قال: إن المؤسَّسة أوّل أدوات القمع البورجوازي، قلت له:

أين أذهب؟!.

قال: تعالْي.

كسرنا معًا زجاجات كثيرةً ورسمني عدّة مرّات، كنت ثملةً وكان يحدّثني عن "فان غوخ" الذي قطع أُذنه لحبيبته، وكنت أريد أنّ أصرخ عندما جذبني من شعري، لأنّ أمّه صارت تطردني كلّ مرّة بعد أنّ تلطم خدّيها أمام الجيران ممسكة بملابسي الداخليّة، وكان الزجاج تحت جسدي، ولم أصرخ.. وبعد أنّ ركلني كثيرًا ، قال إنني أكتب ضدّه تقارير سرّيّة لأمن الدولة وربّما أشي به للتنظيم، جاءت أمّه وكنت أنزف وكانت أشياء كثيرة تؤلمني، لكنَّه أصرَّ على

أنِّي وشيت به وأنِّي شرموطة حقيرة، وأنَّ والدي لـــم يكـــن صانع طرابيش كان قوَّادًا حقيرًا.

صار ذلك فاصلاً متكرِّرًا اعتدته، خصوصًا بعــد أنّ يمزِّق قصيدةً رديئةً ظلَّ يكتب فيها طويلاً أو يتحــدَّث عــن إقصائه عن التنظيم السِّري، وغالبًا ما كانت تحدث هذه النوبة بعد أنّ يمزِّق محاولةً جديدةً للوحة كان يســمِّيها "غامضـــة"، يرسم فيها وجهي بمعالم ذكوريّة أكثر، ويقول إنَّه يعيد خلقي، وإنَّها ستصير بعد أنّ يطلق النار على رأسه أشهر من لوحة "عباد الشمس"لفان غوخ.

وجهي في وجهه ويبقى "نادر" شاردًا، يداه معلَّقتـــان في الأربطة وعلامات جسده مازالت تسأل أسئلة محيِّرة عن الاستبداد والعدالة والحرِّية، أركض وراءه، نختبـــئ تحـــت فراش "ستِّي"، نركض وراء أرانب بيضـــاء صـــغيرة تمـــلأ الأرض، وسعد باشا ينام على ساق الملكة في شرفة كانـــت تطلّ على القمر، ينام فيها الآن الولد الصـــغير الـــذي كبـــر ويتحدَّث عن الزنزانة ورائحة الدم على الجدران والمحقّـــق الذي ظلَّ يحدّثه!.

قال: إنّه يرفض العنف، وإنَّه لم يدبِّر أيّ اعتــداءات بالجنازير على تجمُّعات طلاّبيّة ماركسيّة أبدًا، لطمه المحقِّق على وجهه، وقال: إنّه يختلف معهم، لطمة أخرى مختلفــة.. مع مَن؟!

قالوا: إنّه عضو يثير البلبلة ويشقُّ عصا الطاعــة.. ثلاثة أجساد تناولته وحين سقط تركوا فوقه كومة من أوراقه، كان يردِّدها المحقِّق بصوتٍ عالٍ.

في عالم أصبح التغيير السريع سمة لكلِّ الأنظمــة، هل يصبح الثبات على المــوروث هــو حركــة ارتجاعيّــة متقهقرة نحو الخلف!

الثلاثة أنفسهم يطوّحونه ركلاً.. بأيّة صفة كنت تكتب ذلك؟! السؤال نفسه الذي لطمه به الرفقاء قبل ذلــك.. بأيّــة صفة تعترض وتناقش سياسة التنظيم العليا؟! أنت استعراضي تهوى ترديد مقولات جوفاء رغبة في الزعامة.. تطوَّح بــين كفوف الثلاثة ثم هوى.

قال إنِّه لا كهنوت ولا وصاية من أحد، هذه الحركة الإسلاميَّة ملك لكلّ أبنائها، قالوا له أنت ثرثار. التنظيم أساسه السمع والطاعة وليس المراء والجدل.

قال المحقّق بأيَّة صفة كنت تدوِّن هــذه التعليمــات، ألستَ زعيم هذا التنظيم.

قال: العلاقة داخل التنظــيم أبويّــة. الأب، الشــيخ، المعلّم..

قلت لهم إنّ التنظيم بصيغته الحاليّة هو تنظيم للعميان القادرين على السمع والطاعة، وغالبًا ما ينظــر للمتميــزين نظرةَ ريبةٍ وشكٍّ، على أنّهم مرضى القلوب أو ثرثــارون لا فائدة منهم، وتحت دعوى السمع والطاعة يتمّ ترويضــهم أو إقصاؤهم، قالوا: "يثير البلبلة"،... ثلاثة أرجل فوق صــدره، صدره مازال يوجعه، مازالت أقدام تضغط، والمحقّق فــوق رأسه، من هم، لمن وجّهت هذه الانتقادات، إذا كنت حقيقــة لست أمير هذا التنظيم؟! ألقى له ورقة وقلمًا، كان يمسح آثار دمه في الحوائط، ويركض معي في حقل الأرانب، أرتــدي سترة سعد باشا بنجومها على الأكتاف. انظري يــا نــدى.. ضابط طيّار.. نركض.. وسعد باشا يغلق عليه باب غرفتــه، ويقول "يا ملك ظلّي بجانبي سوف أموت الآن".

يمسك الورقة والقلم، يكتب: لابدّ من الخلاص مــن عقليّة التنظيم الخاص لأنّه صيغة للتزاوج بين كيانين يعانيان

الفصام، التنظيم الخاصّ الموكل إليه بأعمال انتحاريّة هو كيان إضافي سيقوم إمّا بالشقاق بين الصفوف، أو بأعمال همجيّة، لأنّه يعتمد على صيغ العنف والبلطجة.. وطرحنا الإسلامي طرح حضاري.

لابدّ من إلغاء السرِّيّة، فالسرِّية لا تحقِّق جوًّا تتبلور فيه الكفاءات وإنّما تخلق مناخًا للتسلُّط والاستبداد، وبذلك يصبح التنظيم الإسلامي الوجه الآخر للحكم الفاسد، وبذلك تصبح كلّ محاولات الفكاك من الفساد والاستبداد شراكًا للوقوع فيه من جديد.

يغلق أوراقه فيعود للتطوّح تحت السياط.. قلت لك اكتب الأسماء يا بن.. لا خطب ومواعظ.. فاكر نفسك مين؟! حسن البنّا بجلالة قدره يسقط من فوق الخوابير يمسك ورقة وقلمًا جديدًا، يسطِّر كلّ الأشياء التي مرَّت بذاكرته، يتطوّح من جديد في أربطته على فراشه، يواصل صراخًا موجعًا من أشباح تجلده.

*

الجروح التي في ظهري لم تلتئم بعد. يقول إنّني عاهرة، أردّد ذلك لـ "عليا" فتقول: "ليس المهمّ ما يقوله،

المهمّ ما ترينه أنت في نفسك". نتحدَّث عن الفصام الثقافي والنضج النفسي، عن موقف المثقف المتناقض تجاه المرأة، أشكو لها كلّ مرة من جروحي ما عادت تقول غير كلمة واحدة: أنت اخترت خبرة التمرّد، ووحدك تتحمَّلين نتائجه.

في بار الشيخ علي، مازالوا يتحدَّثون عن التقدميّة وخلخلة القيم الطبقية، ندخِّن بشره، ونكتب أشياء عادة ما نمزِّقها. "مها" تأتي لي في الأحلام تعدّ الأيّام الباقية في عمرها وتحدّثني عن الصمّامات التالفة والفقر، وتعطيني قميصًا، أقول لها إنّه يرى جسدي ذكوريًّا وظهري به جروح كثيرة.. تمضي كطيف ثم تعاود في ليالٍ كثيرة زيارتي في الأحلام، مازال يتابع ظلاًّ ثالثًا.

دائمًا يتبعنا، وصار جسدي معروفًا بتفاصيله لدى كلّ الجيران، لأنّه إثر كلّ مرّة يأخذني فيها عدّة أيّام يعود ليكمل اللوحة، ويقرّر جهة التجسّس التي أنتمي لها وبعد عدّة صفعات وركلات أسقط، وتولول أمّه ثم أحتمي بالجيران.

*

عدت لكتابة تلك الأشياء التي أسمِّيها قصصًا أو تذكارات، لم يعد هناك مدرِّس الفرنساوي ليثني عليها، أو

يعيد "نادر" تصحيحها. الآن اكتبها لأجد ما أفعله إذا جلست في الشرفة بجوار امرأة كانوا يطلقون عليها الملكة ناريمان صارت الآن وحيدة وذابلة تتقاسم معي الصمت والفراغ. غبار طباشير الفصول على يدي، وشقوق بيت أبي تتكاثر، وأنا وحيدة، أتشاغل عن الوحدة باجترار الصمت وحروف الكتابة.

الولد الذي كان يصطاد معي الفراشات طار، قال إنّه سيسافر لأنّ يده ترتعش بالمشارط، أمّي لن تبكي على غيابه، ستبكي وهي تغلق معي صندوقًا ترصّ فيه كتب التشريح والباثولوجي والإكلينيكي، وصورًا قديمة لخرِّيجي كليَّة الطبّ دفعة ١٩٤٣ في جامعة فؤاد الأوّل، ودرع المستشفيات العسكريّة تقديرًا لجهوده في حرب الاستنزاف، وشهادة تقدير من نقابة الأطبّاء، وقصيدة من أحد المرضى يشكره على إنقاذ طفلته الوحيدة يقول فيها:

جعل الله في يدك الشفاء... يا نصير الغلابة والأبرياء.

....

البنت التي كانت تلعب على سلّم بجانبه كافورتان كبرت، حلّت ضفائرها تمامًا، لم تعد تركب الأرجوحة التي نصبها لها بين كافورتين، ولم تعد تتسلّق الأشجار، ولم تعد تشاكس أحدًا. صارت تجلس جوار أمّها في الشرفة، لم يعودوا يطلقون على أمّها الملكة ناريمان، لأنّ أمّها لم تعد تفكّ ضفائرها ولا تتعطّر، ولا تجلس في الشرفة لتطرّز الكانفا مع صويحباتها.

أمّها صارت حزينة جدّا وعجوزًا وربّما صارت ودودًا معها لأنّ الذي كان يتعاركان على محبّته مات، أغلقوا عليه باب القبر، صار فقط يأتيهما في المنامات.

....

كلاب بيتنا تنبح، هل مرّ من أمامهم أحد؟! هل جاء قاصدًا أحدًا؟! باب بيتنا لا يستقبل إلاّ رجلاً واحدًا يعدّون له العطور والمناشف. نامي في حضني يا ملك ولا تقرّري الرّحيل الآن، سنعطي له هذه المرّة، امرأة أخرى تجلس في شرفة أخرى، كانت ترقص بثوبها اللّميه المقصَّب أمام مرآة دولابها وتَعُدِّدُ:

"قلبي مدينة وتاه مفتاحـــه كثـــرت همومـــه وقَلَّـــت أفراحه".

- ٣ -

طوق الحمامة

"ما في الدنيا حالةٌ تعدل مُحبَّيْنِ، إذا عَــدِمَا الرقبــاء، وأمنا الوشاة، وسَلِما من البين، ورَغِبا عن الهجر، وبَعُدا عن الملل، وفقدا العذّال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبّة، وأتاح الله لهما رزقًا دارًا، وعيشًا وفارًا، وزمانًا هاديًا، وكان اجتماعُهما على ما يرضى الــرّب مــن الحــال، وطالــت صحبتهما واتّصلت إلى وقت حلول الحِمام الذي لا مردّ لـــه ولابدّ منه، وهذا عطاء لم يحصل عليه أحد، وحاجة لم تُقْضَ لكلّ طالب" **(ابن حزم: طوق الحمامة، باب الوصل).**

سيفتح باب العربة ويقول لكِ

انزلي!

في الشوارع المعتمة

حيث تطلّ صويحباتك من النوافذ

ويبتسمن

وأنت متلبّسة بالجريمة

انزلي!

لا أريد أنّ أرى وجهك.

.. رأسك بين يديك، ويداك بين ساقيك في الحجـرة المعتمة، عارية بجانب الحائط، علـى الأرض، تتكـوّمين، وتستبدلين النشيج بالصراخ المكتوم وتعضّين علـى خرقـة، سيتّضح لك بعد انتهاء النوبة أنّها كانت قذرة، وبعد أنّ يذرف جسدك كلّ مراراته سوف تحثّين نفسك على التماسك. هنـا مقبرتك وتلك اللّيلة بالذّات هي ليلة مولدك، هو يعرف ذلـك، أنت قلت له مثلما قلت منذ سنة بالضبط بلهجة تمثيليّة حفظتها من كلّ الرّوايات التي قرأتها عن التمردّ.. "هـل يمكنـك أن تشاركني الاحتفال بليلة مولـدي؟!" متأكّـدة سـاعتها أنّـك تمارسين أخيرًا دورًا يليق بك، وأنّك لست جبانة ولا مكفوفة، ولا موتودة في جذع نخلة، وأنت كائن عاقل، بالغ، ومن حقّه أنّ يختار، متحمّسة أكثر من اللاّزم لفكرة أنّ كلّ ما لا نطاله نموت بحسرته، مصرّة أنّ تحقّقي إيجابيّتك، فالوقت مناسـب لمغامرة كبرى كمغامرتك.. تضعين مقـدّمات أكثـر ممّـا تستحقّه لمسة يد مهما بلغت عبقريّتها، لكنّـك وجـدت فـي تفاصيلها نفسك، السراديب نفسها التي طالما ضـلّلتك، هـي التي قادتك إلى تعريج كفّه، الخطوط التي تتحسّسينها بيـدك، موضع بصمته، ملامحه التي لا تجدينها في ملامحه، حقيقته

التي تظنّين أنّه يخبّئها تحت تفاصيل من الشـــكّ والعــدوان والوشايات، الخرائط نفسها التي تاهت بها روحك بين مقبرة وإطارات وحكايات لموتى جدد، يخرجونها مــن الأســاطير ليكلّموك عن أصلك وفصلك وما يليق بــك ومــا لا يليــق، الياسمينة التي علّقتها على نافذتك تؤكّد عبر ما ترســله مــن إشارات أنَّ الحياة ليلة واحدة، وعصــفوران كانــا يطرقــان النافذة التي هي نافذتك، التي يدخل منها القمر إلى فراشــك، أكّدا أنّه لابدّ أنّ تدخلي هذه المتاهة، لابدّ أنّ تمدّي يدك إلــى معصمه، حيث يكمن النّبض، وأنّ تضــعي ســبابتك هنــا، لتعليمه كيف يكون الحبّ، حبًّا.

يده التي سينفضها بعد عام وهو يقول لك إنّه لــيس من المناسب أنّ تمسكيها في السينما، ســتعتقدين أنّ لســانه يقول أشياء كثيرة لا ينبغي تصديقها وتواصلين البحــث فــي كفه عن ثلاثة خطوط، باحثة عن حلمك الذي يتــوهّج بــين أصابعه، بدا منذ عام، وفي اللّيلة نفسها التي توافــق وضــع خرقة في فم الملكة ناريمان كي تتلقّــاك جــدّتك، صــغيرة وزرقاء ومتعجّلة، كما أنت دومًا متعجّلة على الحيــاة! بعــد

سبعة شهور فقط تقرّرين النزول في ليلة معتمة كهذه ، عارية، ومثارًا للسخرية كما أنت الآن.

قلت إنّ الحكاية تبدأ دائمًا بعصفور يطرق النّافذة، ينقر مرآتك ويحلّق ثمّ يعاود اللّعبة فتبتهجين سائلة أمّك التي تجلس الآن وحيدة، ترصّ في خطاباتها القديمة وتحدّثك عن التفتاه والأورجانزا المشغولة، وعن هذه الندبة التي تعرفين تمامًا أنّها أثر حصوة ركلها بها هنا في مفرق شعرها، تضمين جسدك في اللّيل وتبتسمين..

"هل يمكن أنّ تشاركني الاحتفال بليلة مولدي؟!"

دعوة تجرّأتِ وعرفتِ كيف تخرجينها من فمك، بعدها برّرتها بالوحدة والقلق والصداقة، ودسستِ بين الحكايات التي كنت تخترعينها لتحكيها سؤالاً أكثر فصاحة عن ارتباطاته، ومواعيده، وكنت مستعدّة لأيّ اعتذار هذه المرّة، فمن دون أنّ يؤكّد لُطفك وأخلاقك، ورقّتك، وقبل أن يضيف أنّك مثل كلّ إخوته، كنت ستنسحبين معتذرة لنفسك مرّة أخرى عن سوء التوقيت أو سوء الاختيار أو القسمة والصيب. لكنّه لم يقل أكثر من اللاّزم ليجعلك معتقدة أنّك

بسيطة متحرّرة وقادرة على الحبّ والحياة. يأتيك ابن حـــزم، يترك لك أوّل عبارة في دفترك:

"الحبّ أعزّك الله أوّله هَزْلٌ وآخره جِد، دقّت معانيه لجلالتها عن أنّ توصف، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة".

تمدّين يدك، يدك القلقة التي كانت تمسك بشـــدّة فـــي عنق أبيك خوفًا من مفارقته، أصابعك المتوترّة التي كانـــت تستدفئ بأيدي صويحباتك بالدرج، بردك الذي دسســـته فـــي القفاز متعفّفة عن السلام والكلام والتلامس، أيًا كان صـــفته، تبحثين بين الخطوط عن اسمك المحفور بين التعاريج فـــي كفّه، تسألين وتجيبك، تضمّك وتضمّدك، وتمسح عن قلبك كلّ هواجسه، وتسقط الحروف المنطوقة والمكتوبة والمحفورة في الذاكرة وتبتسمين في بلاهة، ولا تحاولين اصطناع أيّ مبرّر لاندفاعك، ثم تستقبلين كلّ صباح بصوته، أي تخبّئين أرقك؟! كيف تغافلينها لتسرقي حقّك في الحياة. صـــوت العصـــفورة وهي تنقر الزجاج تغازل نعاســـك، اســـتيقظي، ســـيمرّ الآن صوته، بين النعاس والأرق، تتأمّلين وجهك، تجلســـن علـــى حافة الفراش قلقة، افتحي صدرك قليلاً، تأمّلي عنقك، مـــدّي يدك وتحسّسي مفرق صدرك وتثاءبي حتّى يـــرنّ الهـــاتف.

تركضين كفأرة ثم تتقمّصك روح طفلة تتعلَّم المشي، تتثاءبين بكلام غير مفهوم، تنسين كلّ الذي أعددناه سويًّا. يسألك: "نائمة؟! تتثاءبين: نعم".. يا غبيّة قولي له إنّك لم تنامي أبدًا.

يكمل: "صوتك جميل".

تضحكين قليلاً.. "صوت ضحكتك أجمل"، يقول.

يتسارع نبض قلبك، كنت كبيرة وأنت تنظرين في المرآة وتحت عينيك التجاعيد، وفي مفرق صدرك قطعة ثلج، طفلة أنت الآن غارقة في الصمت، ألطم خدودي وأقول لك إنّه يغازلك، يغازلك، انطقي!.

تحتضنين الهاتف وتقرفصين على الأرض أمام فراشك وتواصلين حكاياتك الخرافيّة.

"هل تسمع صياح الديوك؟"

تضحكين "إنّها ديوك أمّي، تقف تحت النافذة وتفعل ذلك" .

تقطعين بين كلّ مقطع بضحكة قصيرة ومهذّبة "إنّها لا تضايقني". تبيت في عشّها. "إنّها تسكن أشجار العبل التي تفصل بين بيتنا وبيت عمّي".

" كانت مزعجة في البداية ثم اعتدتها.." تسكن أشجار العبل عصافير غريبة، إنَّ لها صوتًا حادًّا.. عصفوران فقط ينقران نافذتي كلّ صباح.. "منتهى الإزعاج" يقاطعك. ربّما متحابّان، عصفور ووليفته، "تخجلين خجلك، معناه أنّ تتضاءلي ارتباكًا" ، ويتمّ اختزال سنوات عمرك أكثر وتراوغين مكلمة باتجاه آخر، "فوق التليفون يسكن كروان"، "أسقطه عامل التليفون في العام الفائت وهو يغيِّر الأسلاك، لكنّه عاد وبنى العش في الموضع نفسه". يتنهّد، تسمعين حركته في فراشه. ربّما يدسّ وجهه بالأغطية مثلك، لو فتحت أمّك الباب عليك الآن فستعرف من احمرار وجهك انَّك تكلِّمين حبيبًا ما، ستغلق الباب بإشفاق لارتباكك، وتزدادين ارتباكًا لو تثاءب، ستدركين أنّه لتمنّى لو يضمّك الآن وأنّ تغلقي الهاتف وأنّ تختبئي تحت الأغطية نفسها التي يخبّئ بها أنفاس تثاؤبه، تصمتين قليلاً، هذا الصمت وصلكما الوحيد، حين تفاجئين بأصابعك تنحدر من تحسّس الندبة التي أسفل شفتك، مارَّة برقبتك إلى مفرق صدرك ستضمّين ياقة القميص وتغلقين أزراره حول عنقك وتواصلين.. "هل تسمع صوت كلابنا؟!".. "إنّهم ستّة.. كارلوس، وبيجن، ومانيرة،

وزينة، ودقدق وديانا".. "كان بيجن أكبرهم، إنّه يشبه أحـــدًا أعرفه، عيناه ليستا غريبتين على الإطلاق".. "كارلوس وزينة لونهما أسود، وزينة لا تلد ذكورًا إلاَّ وتموت منهـــا.. ربّمـــا تأكل أولادها، المرّة الفائتة وجدنا رأس أحد أولادها تحملـــه في فمها وضعته بجوار شجرة وكانت تبكـــي. كـــان جســـده مأكولاً، أمّي تقول لا يمكن أنّ تأكلها، إنّها خائبة فقط وتتركها للعرسة والفئران".. "ديانا بيضاء جدًا وضـــعنا لهـــا ببيونًـــا حمراء، هي صغيرة وبدينة.. دقدق لونه بنّي تقريبًـــا يشـــبه الدببة". تدخل أمّك حاملة سجّادة صلاتها، يقبّلك ويقول لك:

" سأحدِّثك في المساء"، تقرفصين في فراشك وتخبِّئين وجهك بالأغطية منتظرة هذا المساء.

الآن أنت حرّة بلا قفّاز ولا أغطية ولا وجـــه امّـــك الذي يزيدك ارتباكًا، تمدّين كفك لصويحباتك ليروا في ضوء خطوطه هل يزال على المساء وقـــت طويـــل؟!، تنتظـــرين طويلاً متقلّبة على أوراق ابن حزم، طـــوق الحمامـــة، أوّل كتاب قرأته في الحبّ، رأيت فتى فيه بعمامة يقبّل الجـــواري خلف الوسائد المتراصّة في باحات الدور، ويكتب فـــي أيّـــام النزهات "الحبّ أعزّك الله أوّله هزل وآخره جـــدّ"، تخطّـــين

سهامًا باتجاه التمرّد والقمع الاجتماعي، "التمـــرد والتمـــزّق الحضاري، ازدواجيّة المثقّــف ودوره فـــي فـــرض القـــيم المعطّلة"، خطوط عريضة مرسومة بعنايـــة تليـــق برســـالة دكتوراه، قد تجدين "أولجا" في الشرفة تدِّخن وتكتب أشـــياء مهمّة مثلك في أوراقها، وبين كلّ فاصـــلة تتوقّـــف لتـــدخِّن سيجارتها وعينيها اللامعتين في عينيك. تقول "كيف تعتقدين أنّ يعيش رجلُ لمدّة عام دون أنّ ينام مـــع امـــرأة.. أنـــت متحفّظون تمامًا، لكن في الإعـــلان عـــن نـــزواتكم ولـــيس معايشتها". وقبل أنّ ترمي العب ستعيد صياغة السؤال لتؤكِّد لك أنّها تصيغ جملاً عربيّة فصيحة معبِّرة عـــن مقاصـــدها بالضبط "كيف يكتفي رجل ناضج بامرأة تحدّثه في الهـــاتف عن القطط والكلاب في الشوارع؟!" "تقذفين كلّ الأوراق من على الطاولة، عاجزة عن استكمال استدخال القلم إلى متاهات جديدة، ناسية انكّ لحم ودم، متحمّسة لاتهامه بأنّه يخونك وأنَّ هناك كثيرات في فراشه، وأنَّك لن تكوني واحدة منهنَّ، أنت عاجزة عن ذلك مشبوكة في خيوط الحرير والتنتنة، رغم كلّ تمريناتك على فكّ أزرار البلوزة، مادّة يديك إلـــى آخرهـــا، متحسّسة التعاريج التي تحبّينها في كفّه، معتقدة أنّها خريطـــة

روحه التي لا يعرفها، هي أصدق من عينيه الحادّتين اللّتـين بمواجهتك، أصدق من لسانه الذي يركلك بالأحجار..

والمقعدان متجاوران، والمرأة التـي أمامكمـا فـي الشاشة يضمّها حبيبها، تمدّين يديك إلى يده. هي فقط التـي تعرفك وتطمئنين لها، يدفعها بعيدًا "ليس الآن"، يصافح يـدك بدفعة ويدخر "لا أريد أنّ أرى وجهك ثانيـة" حتّـى نهايـة العرض، وقبل أنّ تسقط الستارة يفاجئك بها كقبلة على جبينك يوم مولدك، احتفالاً بمرور عام كامل على أوّل كلمة محبّـة تخرج من فمك "يبدو أنّني وقعت في محبّتك!" .

الورد أسفل قدمك، الورد الذي أعددته لتقديمه له بعد أنّ تُطْفَأَ الشمعة، وتخرجين الحرفين اللذين رسمتهما للصائغ وشرحت له كيف يشبكهما ليصبحا حرفًا واحـدًا، تصـميمًا يثبت أنك تفهمين في النحت قلب كبير على شـكل "أحبّـك"، يضمّ الحرفين مضـمومين كـوردة، ومتعاشـقين كـالموت والحياة، تشبكين أصابعك في أصابعه قبل أنّ تطفئا الشـمعة ويقبّلك في فمك، ودون أنّ تخافي أو تخجلي أو تختلقي أشياء لتغضبي منها لتهربي من أنفاسه القريبة، مطأطئـة رأسـك خجلة من فم مشروط بالخياطات ومسقوف بألواح المعـدن.

إنّه الآن جاهز للالتصاق ناسيًا جروحه، لكّنه لم يقبّلك، ولم تغضبي، عقدت فمك كما كنت تفعلين طفلة وسكبت عينيـــك دموعًا لم يرها، وتظاهرت بالعناد، وعدت مهزومـــة أكثـــر لتجلسي فوق إحباطاتك تكتبين في أوراقـــك أشـــياء لا هـــي قصص ولا أشعار، إنّها فقط خدوش وجهك من أثر حـــادث قديم.

....

الولد الذي أُحبّ أهداني عقدًا بلون الغـــيم، وغـــاب، فظللت أعدّ حبّات غيابه، وأخضّب الأيَّام، مرَّة بلون القمـــر، مرّة بلون الشمس، ومرّة لبون دمي الذي يلفظه رحمي فـــي موعده.

ودار كلّ شيء دورته، وحين توسَّدت صدر غيابـــه نظر في وجهي وقال: إنّه ملئ بالندوب. الولد الذي أحببتـــه كانت عيناه مليئتين بالشجن، وفي جفنه جرح قديم، وحينمـــا يبكي يداري وجهه بكفّيه ولا يرى أحدُ إلاَّ جمـــود حدقتيـــه. قابلني اليوم ولم يكن فيهما إلاَّ التجاهل، قال إنَّ كـــلّ النســـاء اللاّتي يعرفهنّ يحببن العطور، ويحاكين الملائكة. قلـــت إنّ الملائكة حمقى، حاولت تقليدهنّ في الحقيقة، لكنّني بعـــد أنّ

سكبت كلّ العطر الذي أهداه لي، اكتشفت أنّي لست وردة ولا فراشة ولا ملاكًا، ولا حتّى طفلة لقيطة تتسوّل محبّتـــه، أنـــا نبتة صبّار صحراويّ يتزوّد بالحرارة كي لا تلقمه القطعـــان الهالكة. الولد الذي أحببته، وأريت أمّي صورته، وتجـــرَّأت وصارحتها في صحوي أنّي أحبّه صار إذا حدّثته عن محبّتي يركلني بالحجارة، وأمّي التي كانت تشـــمت فـــي خيبـــاتي، صارت تشاركني الوسادة التي تمتصّ دمعة من عينيّ ودمعة من عينيها.

الرجال الحمقى صاروا إذا نظروا إلى وجهي يقولون "ملاكًا" الرجال الحمقى صاروا يتغزّلون في عينيّ، الرجـــال الحمقى لم يروا فمي المحاك بالخياطات. أنت وحدك الـــذي بحثت ودقّقت فلم تجدني ملاكًا ولا قطّة تموء، فهل أقرضتك أمّي عينيها لترى أنّي "خلفة شياطين" وأنا التي لو فتحت لـــك المقبرة الآن فلن تجد عينيْ أبي لتراني بهمـــا، ســـتجد فقـــط مِحْجَرين خاويين من الألق، لكنّك لو نشت في التراب قلـــيلاً ستجد قلبي.

....

الصديقة التي كانوا يربطونها في ساق الفراش، كان اسمها "نُهى". كانت جميلة جدًّا، تهرب من بيتهم حين ينامون وتأتي إلي، وقد تبيع لي أثوابًا لعروستي، وحين نبني البيوت كانت تختار دائمًا أنّ تكون العروسة، وكنت أرضى أن أزوّقها، وأزغرد في فرحها، ولم أكن العريس ولا أمّها ولا أباها، فقط كنت أرضى بأن أكون وصيفتها، والصديقة التي كانت أمّها دائمًا تكويها في ساقها، لم أعد أذكر اسمها، كانت تبكي وتكشف فخذيها وتريني العلامات، وعندما صارت أطول منّي قليلاً كانت تكلّمني من خلف ثقوب بابهم، وتقول إنّ أباها منعها من الخروج، وإنّ أمّها ستذبحها لو كشفت فخذيها ثانية.

أمّا الصديقة التي ماتت فكان اسمها "مها"، كانت وديعة جدًّا وكنت أحبّها، كانت تقرأ لي كفّي وتقول إنّ أوّل حرف من اسمه "ألف" وتتركني. بعد ذلك أبحث عن كلّ الأسماء التي تبدأ بنبوءتها، ولم أكن أجرؤ أنّ أقول إنّ أمّي لو ماتت فلن أتزوَّج غيره، لكنّها لم تمت. الذي مات هو "أبي" و "مها". أمّا الصديقة التي كرهتها فكانت تنام معي على الوسادة نفسها، وأضع يدي في يدها ونحن في طريقنا

للمدرج، وأحجز لها الكتب، وأدوِّن لها المحاضرات، وأحكي لها كم أحبّه، وكم أتمنَّى أنّ أعيش بجانبه، ولم أبالِ بنظــرات الاستخفاف التي تقتلني بها، لكنّني حين رأيت أيديهما تتعانق من تحت سياج الخشب في المدرج لم أبك. وحين اســتعارت بلوزتي وقابلته بها ثم قال لي بعدها إنّها جميلة جــدًّا أجمــل صديقاتك، وأنّها تعرف كيف تفكّ أزرار البلوزة التي تبــدو عليك مثل سترة المجنّدين، وأنّني أشبه كلّ إخوته، بكيت. أمّا هي فلم تحادثني، فقط استعارت حمّالة صدري.

....

لا أحبّ لعبة العريس والعروسة، ولا أحبّ أنّ أقــف في "الجون"، ثلاث مرّات تكسّر ذراعي وهم يشوطون فأسقط ويصفّقون للكرة، وصرت أخاف مــن تســلّ الأشــجار ولا أموت، ولا أحبّ الحجلة لأنّ أمّي تقول إنّ ساقي ليست جميلة وإنّ أصابعي طويلة جدًّا مثــل أصـــابع جــدّي، ولا أحــبّ الاستغماية لأنّي حين أخبّئ عينيَّ يقبل الصبية صديقاتي مــن خلف الأبراج، وفي ثنيات البيوت الضيّقة، ويتركونني أتخبّط من جدار لجدار ولا أعرف كيــف أصــل لشــيء، أحــبّ المسّاكة، أقول صاحت ويلهثون ورائي فــلا يســتطيع أحــد

الإمساك بي، فقط اظهر وأخبو ويحلمون بإمساكي في خلواتهم فاخرج لهم لساني وأقول "أنا القمر"، وحينما أبكي من الوحدة وأقول الذي في عينيه سرِّي.. "اقترب"، يقول "أنت لا تعرفين المحبّة"..

....

قبَّلني أبي في فمي وأعطاني وردة فلم أقبل وردًا من كلّ الصبية، ولا من مدرِّس الفصل ولا من "المعيد" الذي رسم لي وردًا في كتابي وهو يشرح لي في المدرج "هندٌ زيدٌ ضاربها"، كنت أراهم صغارًا جدًّا وليس في وجه ألق وجهه، كنت أنظر لقمر وأقول له إنّ خلفه وجه من أحبّ، ولا ينام في حجر غيري، وحين مات صارت أمّي تقطف كلّ زهور الحديقة وتعلقها على صورته، وتتعس على حجري وتقول: "اقرئي له قرآنا"، وحين استكنت لصدرها قصَّت أظافري وضفائري وحبستني في الإطار، وحينما أحسست بالعجز، تحسَّست ندوب وجهي وقلت للولد النحيل الذي يحبّ فتاته السمراء، "أنا أحبّك"، فقال لي بأسف أنت مخلوق جميل، لكنّك خجول جدًّا، وإنّ هذا يربكه، وإنّه يخاف لو لمس يدي أنّ أتحوّل إلى قطرة زئبق، ثم انسحب، وظلّ يصنع من

شعور فتاته السمراء ضفائر صغيرة، ويصـــفها بعنايـــة، ولا ينظر لي، وحين قابلت من في عينيه سرّي قلـــت لـــه "لـــن أفقدك"، ففككت شعري وأطلت أظافري ودهنتهـــا بـــالطلاء، وقلت له اقترب، فقال لي : أنت عبثيّة ومستهترة.

....

أمّي التي كانت تحكي لي الحواديت عن أبيها الـــذي يغلق النوافذ، ويغلق المذياع إذا تغنّى بالمحبّة، كانت تقول لي إذا متّ من المخاوف "رقيقة ومهذّبة"، وإذا خاصمت صديقتي التي كانت تتشدّق بلبانة في فمها "أنّها أجادت تربيتي"، لكـــن بعد أنّ صارت كلّ الحواديت لا تخيفني وقرّرت أنّ أرقـــص مع الغجر على الأرصفة، نكست أمّي رأسها ولعنـــت اليـــوم الذي أنجبتني فيه.

....

أمّي التي أعرفها لم أرها وهي ترضعني، ولا شممت رائحة صدرها. كانت فقد تشدّن من شعري وتقول "جنّيّـــة"، اهرب من الباب الذي بلا ثقوب، وأصاحب بنات الشـــوارع، وتخجل أمام ضيوفها أنّ تقول إنّها ابنتي. أمّي التي لم يعرفها "هو" كانت إذا نعست في أحضانه، وتشمّمت رائحة عرقـــه،

وتركت أحلامي تسرح بين خطوط وجهه تـأتي وتحملنـي بالليل وتلقي بي في الغرفة الخاوية، وتنـام بجانبـه، وفـي الصباح تضحك وتقول هذه المخلوقة أنت أفسدتها، ثم تجـئ أنت الآن وتطالبين أنّ أكون أمًّا، أنا التي دعوت الله ألاَّ ينبت رحمي أيّ مخلوقات، وقرَّرت أنّ أكـون ابنتـك فقـط وأنّ أعطيك أصابع نحيلة تعبث في شعرك حتّى تنام.

....

عندما كنت أريد أنّ أعذّبه كنت أسعل وكان صدري ضيّقًا جدًّا وعليلاً، تقول أمّي "ذئب صغير يعوي". وعنـدما كان يغضبني كنت أجمع ثيابي وأضعها تحت رأسي وأنـام على البلاط البارد، وأقول "سأترككم.. لا أحد يحبّني.. حتّـى أنت"، فيحملني أبي بين ذراعيه، وقد يضعني بـين صـدره وظهر أمّي. كبرت قليلاً، قلت لمن أحبّ: "سـأتركك إن لـم تحبّني.. سأتركك" فتركني، وحين ألقيت بنفسي على رصيف قلبك البارد الموحل.. بعدت المسافة أكثـر، كبـرت قلـيلاً، مسحت دمعتي وحدّثت نفسي عن التماسك، لكن السعال كان قد جرح صدري.

....

حاولت أنّ أكون كما تشتهي "أنت" أو تريــد "هــي"، اجتهدت كثيرًا أنّ أصبح المرأة التي أحبّها، أو الابنــة التــي تليق بها، لكنّني كلّما حاولت إرضاءها، أغضــبتك، وكلّمــا حاولت مصالحتك جرحتني، أعرف أنّي بحاجة لعبور بحــر مالح كي أجد بعض الحلاوة في الأيّام التي تمرّ، ســأعبره، لكنّي لا أريد أنّ تكون المرارة فقط هي وديعتكما لقلبي.

باب من أحبَّ من نظرة واحدةٍ

"وكثيرًا ما يكون لُصوق الحبّ بالقلب مــن نظــرة واحدة، هو دليل على قلّة الصبر ومُخبــر بســرعة الســلوّ، وشاهد الظرافة والملل، وهكذا في جميع الأشــياء، أســرعها نموًّا أسرعها فناءً، وأبطؤها حدثًا أبطؤهــا نفــاذًا". **(طــوق الحمامة)**

تضمّين يديك حول رأسك أكثــر، رأســك الملــيء بالأفكار، أنت وعريك، والبلاط البارد، وأصوات البنات فــي البناية يركضن، وبابك مغلق علــى قبــرك، تجتــرّين مــن صناديقك القديمة خيوط الحرير والتنتنه، أين رأيته؟!.

تذكرين كلّ شيء بتفاصيله، لأنّك حكيــت الحكايــة نفسها مرّات عديدة لوجوه عديدة، قابلتك على السلّم، أو فــي حجرتك هذه ، ضممت يد مقرفصة كما اعتدت وأنت تحكين، لأنّك أنت الباذنجانة الزرقاء، "نون" كما تعرّفين عن نفســك. لو لم يكن لك وجود ولا تاريخ لكلمات كانت مرادفــة لــديك لطأطأة رأس أبيك بأسف، أو ابتسامة شامتة تخبّئهــا أمّــك: الحبّ والجسد، والعلاقة بآخر، كنت أسيرة أضــلاع لمثلّــث واحد، كان يضيق ويتّسع ويتركك بــين أضــلاعه تعيشــين

الخواء. صناديق جدّاتك، وغرفة أبيــك، ومتاهاتــك، ثــلاث خصلات لضفيرة شعرك المشدودة للوراء ببراءة، حصــرت عليها طويلاً، حرصت عليهما كمخطمة تطوّق عنقك، مشنقة كبيرة تسميّها براءة، اتّضح لك في النهاية أنّها تعني أنّ قلبك سيظلّ منهوبًا كأرض مستباحة يترك فيها الأطفال بــرازهم، والأكبر قليلاً يمتطونها ككلبة في الشوارع الضيّقة. لم تكوني تعرفين أنّك سقطت في وهم هذه البراءة إلاَّ حــين ســمعت سخريته، "أنت ساذجة أم غبيّة؟!"..

هل تعتقدين أنّ بإمكانه أنّ يصدّق مــا تــدَّعين مــن براءة؟!.. أنت حمقاء بالتأكيد.

كان يقصد أنّ يقول إنّ ما رأيته طوال عمرك قيمــة كبيرة مجرَّد وهم سخيف، ولم يفهم بعــد ذلــك ايّ شــروح تفصيليّة، لأنّه حين آمن بذلك، تأكّد أنّك غير طبيعيّة بالمرّة. أنت مجنونة، وللمرّة الأولى تشعرين أنّ هذا اللقــب الــذي تطلقينه على نفسك كدعابة بين قوسين يؤكِّد بســاطتك فــي التعبير عن نفسك، مدية حادّة تخترق وعيــك بــذاتك، فــي الأرض تتمرّغين، لا تجترّين فقط طعناته، بل تتركين خيوط الحرير تدغدغ ذاكرتك، يدك إلى امتدَّت من أوّل لقاء لتســلِّم

عليه، ورقة صغيرة احتفظت بها، عليها اسمه ورقم هاتفــه، تذكرة السينما واسم الفيلم وأبطاله، أوّل ثوب ارتديته له، كان به حلقات تشبه دوائر صغيرة متشابكة كحلية، رغم أنّ أمّــك تقول إنّه غير مناسب لك لأنّه كثياب الأطفــال، فســترتدينه وتدفعين في حلقاته وتحذفين عشر سنوات من عمرك لتعيشي ما نسيت أن تعيشيه، مخلصة لذكرى الــذي قبّلــك ورافــق الجلطة ومضى، متّعظة بحكاية قديمة دأبت على حكيها فــي المسجد بعد أنّ تتحدَّثي عن فضيلة التعفّف، وغضّ البصــر والزهد في الدنيا وزينتها "وما عندكم يفنــى ومــا عنــد الله باق".. تقولين بتأثّر بالغ!

"كان بالكوفة فتى جميل" عابدًا ناسكًا لا يبرح موضع صلاته، رأته فتاة جميلة المطلع وهو يريد المسجد، فشــغفت به وطال ذلك، فلمّا رأته يومًا قالت له يا فتى، اســمع منّــي لمات أكلّمك بها ثم اعمل ما شئت، فقال لها.. هــذا موضــع تهمة وأنا أكره أنّ أكون للتهمة موضعًا، طفرت الدمعة مــن عينيها، ثم أكملت: والله ما لا وقفت موقفي هذا جهالة منّــي بأمرك ولكنّكم معشر العباد مثل القوارير أدنى شيء يعيبهــا، وجملة ما أقول لك إنّ جوارحي كلّها مشغولة بك.. فــالله الله

في أمري وأمرك. فكتب الفتى لها قرطاسًا ورماه إليها.. قال لها فيه اعلمي أيّتها المرأة إن كان ما ذكــر بــاطلاً، فــإنّي أذكّرك يوم تكون السماء كالمهل وتصير الجبال كــالعهن ولا يعرف خليلٌ خليلاً؛ وإن كان ما ذكرت حقًا فإنّي أدلّك علـــى طبيب هدى يداوي الكلوم الممرّضة ذلــك الله ربّ العــالمين فاقصديه. أمّا أنا فمشغول عنك بقوله تعالى: ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجرِ كاظمينَ ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاعُ يعلمُ خائنة الأعينِ وما تخفي الصدور﴾.

فبكت بكاءً شديدًا وقالت له: اســأل الله الــذي بيــده مفاتيح قلبك أنّ يسهّل ما قد عسر من أمرك، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلاَّ بين يد الله تعالى. ثم لزمت الفتاة بيتها وبكت بكاءً شديدًا أشدّ من بكائها الأوّل، فلم تزل على هــذه الحال حتّى ماتت، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ويحنّ إليــه أويبكي فيقال له فيما بكاؤك وأنت قد أيأســتها مــن نفســك، فيقول : إنّي ذبحت طمعها في أوّل الأمر وجعلت قطيعتهــا ذخيرة لي عند الله فاستحييت أنّ أستردّ ذخيرة ودعتها عنده.. وظلّ على ذكرها حتّى لحق بها من الحزن([1]).

---

[1]) قصّة تراثية وردت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

وحدك تصدّقين ما تحكينه لهــنّ، تــدّخرين فرحــك ولهفتك وهنّ يتركنك بعد انتهاء الموعظة ليدسسن أيديهنّ في أيدي الآخرين بين القاعات والمعامل والأدراج، وتلبسين أنت قفّازك، وتطوين رمش عينيك متدثّرة بحكايــة واحــدة مــن صقيعك الداخليّ.. كان الفتى وكانت الفتاة، حكاية مرَّ عليهــا الآن خمسة عشر قرناً.. لا تدركين معنــى ذلــك إلاَّ حــين يواجهك بعينه "أنت حمقاء وغير طبيعيّة بالمرّة". ساعتها فقط يتضح لك أنّ ذلك كان زمناً ما غائمًا ولا يخصّــك، وأنَّــك تنتمين أكثر إلى "أولجا"، التي تدخّن في الشرفة متحدّثة عــن أنّ الحبّ خبرة حواس وأنّك رومانتيكيّة أكثر مــن الــلازم، وأنّ أفكارك أيضًا التي تسطّرينها في هوامش أوراقك المهمّة أكثر رومانتيكيّة وتهويمًا في الخيال، ستطلقين يديك من على الأرجوحة وتتمنّين دفعة قويّة تحوّلك إلى فراشة، إلى غزالة، أو تركضين في صحراء ممتدة وصافية ، إلى صقرة تنام في كهف عالٍ على أحد الجبال، ولن تطيري. ستســقطين مــرّة أخرى على فمك، وفكّك المليء بالكســور، وســتئنين علــى الأرض محتضنة خرقة قديمة مرسوم عليهــا قطّــة تمــوء تضمّنيها وتقولين، من جرحك بين ضلوعك يــا ياســمينا؟!

ترشّين البنسلين على الجرح، لن يطيب ، ستظلّ تموت على الخرقة التي تمسحين بها دموعك.

يده في يدك، تمسح كلّ الذي تعرفينه عن نفسك من جروح، يده فقط تطوّحك بعيدًا كما كان أبوك يطوّحك بين ساعديه وجسدك الضئيل يتفتّح تحت وطأة عوالم لم يألفها، لن تنامي تلك الليلة ستضمّين عقدًا وزجاجة عطر إلى صدرك وتختارين أين تخبئينها وأنت بلا حاجيات لا دولاب مغلق، أنت مباحة بلا أسرار، كلّ سكناتك وعاداتك يألفها الجميع، ورقة وتذكرة سينما تخبّئينهما في دولاب أبيك، في سترته التي عليها النجوم، وعليها آثار كلّ الجراحات التي أجراها بمشرط هناك في مستشفى التلّ الكبير العسكري وأنت مازلت في طور الباذنجانة، تلك السترة التي كان يعتزّ بها وتغطّيها أمّك بعد مماته بالأغطية في جيب السترة، موضع القلب حيث تقبلين السترة أحيانًا، ورغم أنّها بلا رائحة غير رائحة النفتالين ومضادّات العتّة، فستمسحين بها دموعًا كثيرة معتقدة أنّه يحسّ بك، وأنّه بذلك سيغفر لك خيانتك لذكراه، وسيسمح لك أنّ تؤجّلي مسألة المجد هذه ريثما تحتضنين شيئًا يخصّك، وبعدها ستواصلين البحث عن مكان لائق باسمه

الذي تحملينه، وذكرى الولد الذي تحبّين في يديك لا تتمحي، تنامين، وتستيقظين عليها، سائلة هل هذا الذي تحملينه بين ضلوعك حبًّا؟! تتنهّدين مكتشفة أنّ ذلك في الأثواب الضيقة التي صرت ترتدينها جسدًا ولك شعر طويل، ولك وجه يتأمّلونه الآن باستحسان، وأنّ بقلبك ضحكة تكمّمها يدك التي تنطلق تلقائيا إلى فمك مخبّئة اعوجاجًا ترينه بوضوح، وجروحًا خبّأها الزمن. كانت خياطات طولية وعرضيّة يخرج لها الأطفال لسانهم وهم يحاصرونك "سيسي يا سيسي يا سنّ الفار، سنّ النجّار أبو منشار" مؤكّدين لك أنّ فكّيك لا ينطبقان على بعضهما ليحدثا هذا الصكيك المصاحب لسخريتهم، معتقدة أخيرًا انّه لم يُحيي العظام وهي رميم فقط، بل كساها لحمًا ثم أنشأها خلقًا آخر، تبارك الله أحسن الخالقين. تقولينها لصورتك في المرآة وتتنهّدين فاتحة صدرك قليلاً راضية عن الحياة التي أعطتك أخيرًا أكثر ممّا كنت تنتظرين.

باب الوصل

"من وجوه العشق الوصل، وهو حظّ رفيع، ومرتبة سرِّية، ودرجة عالية، وسعد طالع. بل هو الحياة المجدّدة، والعيش السنيّ والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة. ولو أنّ الدنيا ممرّ ومحنة وكدر، والجنّة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفا الذي لا كدر فيه، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه، وكمال الأماني ومنتهى الأراجي.. وعنّي أخبرك أنّي ما رويتُ قطّ من ماء الوصل ولا زادني إلاّ ظمأً".

(طوق الحمامة)

مستسلمة بدهشة، نصفك يشاهد، ونصفك يعيش، شطران متواجهان، فمك على فمه، ملتصقان بهدوء يفزعك، يؤكِّد لك أنّك بنت مثل كلّ البنات، لا طيرة ولا كتلة لحم معجون بها ملامح. يقول وهو يضمّك أكثر "كم نحن متشابهان؟!" ذلك أيضًا وتتحسّسين قامته بيديك، فقرات ظهره في احتوائك، مستغربة بساطتك، عيناك بعدها لن يكفّا عن اللمعان الأثيم الذي يتبع الجرائم، وفمك عن التوق للالتصاق، تضمّينه أكثر من صحوك ونومك، تهجرين أرجوحتك،

وترسمين للملائكة سهامًا وقلوبا متكسّرة، معتقدة أنّها النهاية التي يكتبونها في الأفلام. فمك على فمه. ثم صبيان وبنات وثبات ونبات، تختصرين كلّ الذي لم تعيشيه في فقرة واحدة تبدأ بكلمة "يبدو أنّني أحبّك".

تنغّمينها كالأطفال العابثين ثم تنفقين كلّ ما ادّخرته من أرق وقلق وتدفّق وخصام وفرح، وفي ثوب أمّك ترقصين أمام المرآة، متحسّسة مفرق شعرك باحثة عن ندبة مماثلة، متعجّلة كما كنت دومًا، تركضين إلى الهاتف، دافعة يد أمّك التي تتفقّدك صارخة أنّك كبرت بما يكفي، وعليها أنّ تتركك تعشين حياتك، تضمّك أكثر مشفقة عليك من اندفاعك مردّدة كلمات خوفها، وأنت تتحسّسين جسدك بالليل دون أنّ تحسّي بضآلة أو خجل، ستشعرين فقط باللّهفة، وتضمّين يديك إلى تعاريج كفّه ناسية كلّ الأراجيح التي سقطت منها، لا تنامين ولا تستيقظين، بعدها تعدّين حقائبك وتخرجين من الثقب الوحيد الذي يمكن أنّ تنفذ منه فراشة في علبة لها ثقوب، راسمة وسط السطر بخطو واضحة:

"جدليّة التمرّد والقهر النوعي"

منهمكة أكثر ممّا ينبغي في مصادر ومراجع وخطط أوّليّة للبحث، معتقدة أنّك تبحثين باتجاه ذاتك، تفتحين الأقواس وتكتبين:

[يحتلّ جسد المرأة حيزًا كبيرًا من دائرة اســتلاباتها، فإن كان الكبت هو أوّل محاور اســتلاب المــرأة وانتهــاك آدميتها فهي في الوقت نفسه أداة جنس، هذا التنــاقض بــين وظيفة المرأة وصورة الجنس أدَّى إلى كثير من الخلل فــي وعيها بجسدها والي تناقض أعمق في مفهوم الشرف والعفّة في العقليّة العربيّة].

تغلقين الأقواس وفمك نصف دائرة مشطورة تنتظــر اكتمالها، وبرج القرد إذا كان مع السرطان أنثى فهو لطيــف وأليف وله وجه مستدير يتأثّر بالقمر وبحركة المدّ والجــزر، تقولين له ذلك كأنّك تصحبينه لداخلك، هذا الــداخل العميــق بحجم كلّ السراديب التي حفرتها مع أرانبك بحثًا عن مخرج. و "أولجا" التي تشاركك الشرفة ستسألك "هل تعتقدين أنّ قبلة في فمك إنجاز كبير يستحقّ دائمًا أنّ تكرّسي كــلّ طاقتــك لاجترارهِ!". تلقي "أولجا" أعقاب السجائر دائمًا فــي الشــرفة دون أنّ تطفئها، تترك دخانها يتصاعد وهي لن تفهم أبدًا أنّك

ادّخرت كلّ هذا الأرق، تعيشينه دفعة واحدة مع رجل واحد، تعيشين معه ويموت على صدرك ويترك ندبة بين مفرق شعرك وهو يركلك بحصوةٍ ما، سيضمّك إلى صدره ناعسة، حانيًا كما تمنّيت من الحياة، تقولين بعد ثلاثين عامًا من الزحف في أنفاق مظلمة لنفسك والمرآة أمامك تعكس جسد طفلة، وروحك متاهة كبيرة "من حقّك أنّ تعيشي وتحبّي.. هل تشعرين أنّ تخلّصك من غطاء رأسك ذنب كبير يستحقّ أنّ تفسدي أفراحك الصغيرة بالحيرة أو التشكّك في مقدرتك على أنّ تحبّي وتعطي".. ترتبين على جروحك قائلة إنّه حقّك، سامحي نفسك، نافية مشاعر الذنب ونافية كلّ تخاذل الكبت، مقرّرة أنّها حياتك وأنّك وحدك المسؤولة عن صنع فضيلتها بأشياء أخرى دون قمع روحك التي تهفو للمحبّة. لم يفهم، ضممت فمك إلى فمه مرّة واحدة وقلت "أحبّك"، ثم فتحت قوسًا جديدًا، مستمرّة في الكتابة:

[الكبت محصلة لكلّ استلابات المرأة التي تمّ تشويه كلّ مفاهيمها وطمس إحساسها حتّى للعلاقة الإنسانية لجسدها ومطالبها البيولوجيّة ولآدميتّها وكيانها الإنساني.. هذا الكبت التاريخي الذي يمارس على المرأة هو الذي دفع

بها من مساحات النّديّة والمشاركة إلى دوائر الاستلاب، إن جسد المرأة مؤسّسي منذ البداية وليس الوأد إلاَّ صورة من الاحتكار الذي يؤدّي إلى علاقات ظلاميّة يحلّ فيها القهر مكان الحبّ والتواصل].

في الليل فقط كان صوتها يأتيك، تقول لك ارجعي.. وكنت تحدّثينها عن مستقبلك وحياتك وأنّه لابد أنّ تكوني نفسك وأنّ عمرًا طويلاً سقط منك دون أنّ تعي معنى فواته، وأنّك كبرت بما يكفي لأن تصبحي وحدك، ولم تكن المدرسة الداخليّة التي طمحت لها ذات يوم لتعلّمك، كانت مجرّد سكن رديء تركض فيه البنات بملابس تكشف أجسادهنَّ ولا يخجلن، بل يقفن في الشرفات التي يطلّ منها المارّة ويطلقون أبواق سيّاراتهم.

ستبحثين عن شيء يخصّك في هذا المكان، ولن تجدي سوى ممرّ ضيّق يطلّ على بيت قديم، وأعشاش لحمام تعس. كان بإمكانك أنّ تري من هناك القمر أو نجمتين خابيتين تمامًا، عن يمينك "أولجا" التي تخطّ رسالة الدكتوراه في الأدب العربي، وعن يسارك "ساريا" تبحث عن التغيّرات الاستراتيجيّة فيما بعد كامب ديفيد وحقيقة الدور الفعلي

للسلطة الفلسطينيّة، وأنت تخطين للتمرّد أوجهًا سيكولوجيّة عديدة بين الطبقة والنوع والدوافع النفسيّة والاجتماعيّة.. ثلاثتكنَّ يشاركن فقط في ثلاثة أشياء، شرفة وحمّام ومطبخ وباب إذا أردتنّ سيغلق عليكنّ.

ستنامين طويلاً بلا نوم، قد تقولين لـ "نادر" إنَّك وحدك، وإنَّك لا تعرفين كيف تنامين في بيت غير بيت أبيك وأمّك، وإنَّك لست متأكِّدة أنّك على صواب وتشعرين بالذنب أحيانًا، سيقول لك: افعلي ما شئت المهمّ أنّ تكوني مقتنعة.. ويغلق الهاتف سريعًا لأنّه مشغول، وستقول لك أمّك ارجعي. كلّ مرّة تقاومين بعناد محاولة أنّ تثبتي أنَّك سعيدة بدونها وأنَّك تعيشين ما كنت تشتهين، فأنت تركضين في النهار تائهة، وتجلسين في الليل وحيدة تجترّين مشاعر أكثر بؤسًا، ولا تعرفين النوم.

باب الهجر

"وأهل هذا لطبع أسرع الخلق محبّة، وأقلّهم صبرًا على المحبوب، وعلى المكروه والصدّ وانقلابهم على الودّ على قدر تسرّعهم إليه، فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك، ولا تعنها بالرجاء في وفائه" **(طوق الحمامة).**

في الغرفة نفسها المليئة بأوراقك، ومسودّاتك التي سطّرت فيها أبوابًا واسعة عن الكفّ والقمع والقهر النوعيّ والقيم الاجتماعيّة والحوافز التي يقدّمها المجتمع كالرضا والتقبّل والانسجام مع الفرد الخاضع، تفتحين صدرك أكثر متحسّسة عنقك مؤكّدة بين الأقواس [وتمّ إجهاض حركة تحرير المرأة وإفراغ محتواها التقدّمي واستثمارها لصالح البورجوازيّة لتحقيق نزعاتها الاستعراضيّة، ثمّ أجهزت السلفيّة على هذه المكتسبات نهائيًّا إذ ألقت المرأة بحصاد نضالها لتعود طائعة مختارة لمواقعها القديمة من خلال التمسّك بالتقاليد أو ما أسماه البعض بالردّة الحضاريّة، أي نكوص المرأة واختباؤها في ظلّ الموروث بديلاً عن التمرّد والمسؤوليّة، فقد عادت سريعًا إلى القفص وهي أكثر رضاء بالأمن بديلاً عن مواجهة تبعات التحرّر ومنزلقاته، ومن هذا

المستوى تمّ إغلاق ملف التحرّر الجنسي بعد أنّ تماهت المرأة ذاتها في مفاهيم الشرف والعفّة التي تصنع عفّتها الجسديّة بديلاً عن وجودها الإنساني، وسلّمت بأنّها جسد نافع وعقل ناقص].

سوف تزيحين كلّ الأوراق المهمّة جانبًا، تاركة كلّ التفاصيل التي انغمست فيها مدًّ وجزرًا، ضامّة يديك إلى قلبك، مقرفصة، منتظرة طويلاً أنّ يجئ وأنّ تفتحي باب الوصل عن آخره، راكلة كلّ قيم الخضوع في المزبلة، متحدّثة عن الازدواجيّة والتناقض القيميّ، مجترّة للمرّة الألف تفاصيل اللّقاء المعجزة حين ضمّ يدك ثمّ جذبك إلى جسده ضمّ فمك إلى فمه في واقعة لم تستطيعي نسيانها، الذي نسيته تمامًا الآن هو وجهك الذي كان يبدو جميلاً كما لم تريه أبدًا، فاتحة بتلك اللّيلة ذاكرة جديدة تؤرّخين لها بيوم ولادتك على يديه، جميلة مثل كلّ الأطفال، ومبتسمة بوداعة من ينامون على علب الحليب، وراضية عن الحياة كما أنت الآن، بعض القلق والحيرة قد يتسرّب من تحت وسادتك، تدفعينهما بعيدًا بيدك وتتعسين، وأنت ترسمين صورةَ فستان أبيض بعد أنّ تقول لك "ساريا" إنّ "السيرما" بطلت، تقترحين تطريزه بورد

الجبير. عار مثل فستان زفاف فاتن حمامة وعمر الشـــريف، قد ترسمين أكمامًا منفصلة بقفاز يصل لنهاية الذراع، تاركـــة الصدر والظهر عاريين ولن تخجلي. ذلـــك فســـتان يصـــلح للرقص أيضًا ، واحد، اثنان، ثلاثة، يده أسفل ظهرك ويـــدك على كفته؛ واحد، اثنان، ثلاثة، يفتتحون بها كلّ الأفراح التي شاهدتها قبل تقطيع التورتـــة وبإطفـــاء الأنـــوار وبتصـــاعد موجات من الضوء الفسفوري، تمـــرّين علـــى الواجهـــات والأثواب ومحلات الهدايا، قلبان متشابكان من الفضّة، إطار يصلح لصورة الزفاف، قلب آخر يصلح لصورة ابنتك التـــي تحلمين بها، هذا الثوب ستشترينه يوم يصالحك، وربّما لـــو قصصت شعرك قليلاً سيصبح أجمل، خصوصًا مع ارتـــداء سترات أقصر لأنّ ساقيك ليستا سيئتين لهذه الدرجة، ليســـتا جميلتين وليستا قبيحتين، إنّهما فقط ساقاك. ستقولين إنّ بيتـــه يشبه دكاكين الورّاقين، مثل بيت الجـــاحظ مـــثلاً، وأنّكمـــا ستضعان خريطة للسير فيه على هدى صفوف الكتب التـــي رأيتها فوق السيفون وفي دواليب المطبخ، ولن تنـــامي أبـــدًا على سرير أسود، تريدين سريرًا ذهبيًا بعمدان مثل ســـرير جدّتك، وستشترين له مفرشاً بلون فستان زفاف أمّك "ورديّ"

وتغلقين عليه باب الحجرة جيِّـداً كـي لا تفسـدها طفلتـك وستعضين تحت الوسائد أوراق الحنّاء، وربّما ترشّين لـه عطرًا على وسادته حتى ينام مثل جدّتك نينا، وتتلحّسين في أقدامه بلسان قطّتك الصغيرة التي تحتضنينها فوق المناشف.

مستعدّة أنت الآن أنّ تركلي كلّ العلب الورقيّة التي حبسوك فيها، وتفتحي أزرارك كلّها، وأنّ تمزّقي أوراقك بثقوب كثيرة للضوء والمحبّة والحياة، وستجمعين كلّ صورك وإطاراتك وتتركين لها الشرفة والياسمين والمستكة وأشجار العبل التي تظلّل بيتكم وبيت عمّك، وتقولين لها هذه المرّة إنّك اخترت من تحبّين، وإذا لم توافق فلن تهربي منها، أنت الآن أكبر من الهرب، سترقصين معه على أضواء الفسفور وليس مهمًّا أنّ تكون موجودة، ولا عمّك ولا خالك ولا كلّ من عرفت من أقارب. وستنسين أنّ لك أمًّا كان اسمها الملكة ناريمان وأب اسمه سعد باشا وولد صغير جميل كان يشاركك اللّعب وصنع مجلاّت الحوائط. صار الآن يقول لك في الهاتف "المهمّ أنّ تكوني مقتنعة"، ثمّ يغلقه سريعًا لأنّه يريد أنّ يهاجر إلى كندا.

النسيان ليس عملاً خارقًا، ستسقطينهم مــن حســابك ليتركوك تعيشين حياتك، غالقة عليك بابك، وسوف تتذكّرينهم جميعًا وأنت تقلبين في ألبوم صورك، أو وأنت تحدّثينه عــن ضرورة إيجاد غرفة للبيبي لأنّ البيت أصغر من أحلامــك، وأنّ على كلّ منكما أنّ يعيش في غرفة منفصــلة، غرفتــك ستغضبين فيها منه، إنّك تغضبين كثيرًا، وعليك أنّ تجــدي مكانًا داخل بيتكما لدفن غضبك بعيدًا عــن عينــيْ طفلتــك، وربمّا تختلفان على اسمها وأنتما تقتســمان أعمــال البيــت، وعليه أنّ يصبر قليلاً لأنّك لا تعرفين الطــبخ، ولا الحيــاة المرتّبة، ولا يهدّدك بالأخريات، لأنّك تتحــوّلين إلــى فــأرة مذعورة وتتحسّسين كلّ خدوش وجهك بألم، وتنسحبين بعيدًا متضائلة داخل حلزون لا نهاية له داخلك.

تفتحين أكثر باب الوصل باشتهاء لكلّ ما لم تعيشــيه من فرح ودموع وانتظار وحيرة، والأسلاك على فمك وسنين مرّت تتحسّسين حبّات الرمّان المفروط لتضعيها في فم غيرك لأنّك عاجزة إلاّ عن التلطّع بعيون محســورة عــن الرّغبــة والتعفّف. هنا أنت الآن تعيشين انتظارًا طويلاً متسامحة عن كلّ ما خذلك فيه، وهو يحدّد عباراته المصوّبة بدقّة "لم أحلم

أنّ أتزوّج بهذه الطريقة.. يجب أنّ نتعارف بشكل جيِّد قبـــل أيّ إجراء". موافقة ستهزّين رأسك وتجلسين فـــي الشـــرفة، ترمي "أولجا" أعقاب السجائر وتواصلين انتظـــاره، مؤكّـــدة لنفسك أنّ هذا حقّه، واجدة له آلاف الأعذار، مستعدّة للإيمان بأنّ الحبّ خبرة حواس، ومستعدّة لأشياء كثيرة أخرى لو نرّ الهاتف وقال إنّه بانتظارك، ناسية التي تجلس في شرفتها وقد غزا الشيب مفرق رأسها تعدّ في الياســمينات الميتــة علـــى أهدابها وتقول لك في المنامات "تعالي".. وبعد أنّ يؤكّد لـــك: أنكما أصدقاء حتى يصبت عكس ذلك، وأنّك ضيقّة الأفق جدًّا وتفهمين الأشياء بوعي محدود لأنّك ترين الحياة من زوايـــا أكثر ضيقًا، أنت مجرّد بنت تنتظر عريسًا وأنّ ذلك قد يكون ممكنًا لكن ليس الآن، ليس بهذا الشكل، ليس بهذه الســـرعة، إنّ ذلك يحتاج وقتًا للتفاعل، وستحاولين بدورك أنّ تصـــدّقي وتؤمني بأنّك ضيّقة الصدر و تحاولين فتح أقـــواس جديـــدة تتحدّث عن أنّ الحبّ حقيقة أساســـية، وأنّ المفـــاهيم التـــي تتحدّث عن شرف الجسد [هي مفاهيم مكرّسة للزيف والـــرّاء الاجتماعي، وأنّ مساوئ إعلان الحقائق أقلّ مـــن مســـاوئ كبتها وتزييفها، وعلى المرأة أنّ تتعامـــل بمنطـــق ملكيّـــة

جسدها، ملكيّة عفّته وبكارته في مقابل تسليع الجسد أو سقوطه وعهره حتى داخل المؤسّسات الاجتماعيّة وأوّلها الزواج بما يحمل في أشكاله التقليديّة من اهتراء قيميّ وامتهان لجسد المرأة]. وبعد أنّ تنتهي من صنع قناعات جديدة ترتدينها فوق خوفك وخجلك وميراثك القديم، سوف تواصلين التأهّب للمسة قادمة تتحوّلين فيها إلى فراشة تواجه شوقها للضوء. لمسة فقط من يده سوف تطلقك، حرّة وناضجة، وقادرة على التواصل.. ناسجة لغيابه أعذارًا كثيرة، كاتبة خلف أشعارك التي حاكها الإحباط "أحوال المحّبين".

....

في هذه الغرفة التي لا تشبه بيت أبي ولا بيوت أصحابي ولا بيوت كلّ من عرفت، خلعت ملابسي، وعلّقتها على المشجب، ووضعت صورة أبي، وجدّتي وأنا أحبو في حجرها، وصففت كتبي على الطوالة وحادثتك فلم تردّ. فالتفت حولي ثلاثة وجوه تحدّثني عن البعثات والكتب والرسائل، وحين أعاود الاتصال، أدرك كم أنت بعيد.. يتّهمونني بالخجل وعقد الذنب من جسدي، بأنّ هدوئي سيفسد

أخلاقهنّ، يتحدّثن، ثمّ نضع فنجاني القهوة تحت الماء فتمنحي رسومها، وحين أغلق عليَّ باب حجرتي ويعــرفن أنــيّ لا أستطيع النّوم، يتحولّن جميعًا إلى أمّهات، وأتحول إلى نبتــةٍ هشَّةٍ مسحوقةٍ تحت وطأة فقدك.

....

الفناجين التي نقرأها تقول لي إنهّ يتــأبّط ذراعــي، ويشتري لي عقدًا من الورد الصغير ويسير بجــانبي علــى ضفّة النيل، وربّما يقبّلني إذا كان نور السلّم مطفأً، لكنّك دائمًا تمسك بالورقة والقلم وتصحّح في أشعاري أخطاء كنت أحبّها أنّ تظل أخطاء لأعرف أنّ قلبك يشاركك القراءة. هل هــذا الذي بالفنجان رجل آخر وعليّ أنّ أتركك تصــحّح، ربمّــا تتوصّل أنّك أخطأت ذات يوم في حقّ قلبي.

....

هذا الصباح، رنّ الهاتف كثيرًا، لم أكن في انتظارك، لكنّي تمنّيت أنّ تكون أنت، وكان صوت آخر يرتعش بخوف وتردّد ومحبة، وكان صوتي متعبًا.

قلت : كنت فقط أحلم.

قال: صحوت الآن؟!

قلت: سقطت من حلمي على "الأرض"

....

فراشة حامت حول وردة انتظاري، قالت لها: انعسي، كنت ما أزال بجوار الهاتف، رسمت عينيَّ ومشّطت للمرّة الخامسة شعري، واخترعت لمن حولي ألف أكذوبة كي يتركوني أمر، إذا قلت لي: إنّني بانتظارك، ورنّ كثيرًا، وتكلّم الجميع.. وكان قلبي يختلق لك الأعذار، ويعرف أنّني سأصدّقه. وكنت أريد ذلك في الحقيقة، لكن فراشة أخرى وشت بأنّ الموتى قد يعودون وأنّ الجروح تلتئم وأنّ الفصول تتغيّر وأنّك نسيتني، وأنّ عليَّ أنّ أقبل ذلك وأفهمه، فدخلت غرفتي، وفي الفراش كان حزنٌ شفيفٌ يعبث في شعري ويحكي لي الحواديت.

....

كانت على طرف الطاولة ورقة صغيرة مكتوب عليها أمس بخطّ واضح جدًّا، كانت هناك أوراق أخرى أكثر أهمِّيَّة حملها في حقيبته ومضى، وكان أصحابه ينتظرون دائمًا ليتكلّموا في مهمّات أخرى. كانت الحجرات تتغيّر بي، لكنّني كنت أضعه بجانبي يترقّب مثلي أنّ يفرغ ويتذكّر أنّي

بانتظاره، لكنّه كان مشغولاً دائمًا ، وكنت إذا رفعت سمّاعته فسأحكي لأصدقائي التافهين كيف يكون الانتظار صعبًا، وإذا جمعت قصاصاتي الأكثر تفاهة فلن تخلو ورقة منه.. ضجر الهاتف وتململت الأوراق، وصمت أصدقائي بإشفاق، ولم أزل وحدي التافهة التي تواصل بعناد محبّتك.

....

هذا الهاتف أكره، ربّما يكون هو سبب تعاستي الأوّل، دائمًا يلقي لي بأشياء جارحة، أحيانًا تهكم وأحيانًا تجاهل، ومرّات كثيرة استخفاف وشماتة.. هذا الهاتف أنا أعرفه منذ زمن يمكن أن يخدعني وأنّ يبدّل كلماتك وأن تختلط في قلبه الأشياء إلى درجة العمى. أنا أعرفه تماما ولا يمكن أنّ يخدعني ويهمني أنّ الصوت الذي يبعثه هو أنت.

....

تلك الجثّة يخافون عليها كثيرًا ، تتحسّسها أمّي كلّ صباح، تضفر شعورها وهي تحسبها حية.

هل ترغبها؟! خذها، فقط أعد إليها الروح التي هربت لتعقد المؤامرات الصغيرة، وترسم الخرائط، بحثًا عن طريق إلى قلبك.

باب الغدر

" وهو الذي لا يحتمله أحد، ولا يغضي عليه كـــريم، وهو المسلاة حقًّا.. لا أدعي إلى السلو عن الحرّ النفس وذوي الخفيظة والسرى والسجايا من الغدر، فما يصـــبر عليـــه إلاَّ دنـيء المروءة خسيس الهمّة ساقط الأنفـــة.. وأنّـــي لأجفـــي فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة واللّوم الذي لا يطيقه أحـــد، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي، تصبّرت وفي القلب ما فيـــه" **(طوق الحمامة).**

قبل النهاية تقفين في كلّ قصصك وتمطـــين خيـــوط الحكي كي لا تنزلقي إلى الفقد، أعرف أنّه طالما دمّرك هـــذا الإحساس بالوحدة الذي ترسمه تجاعيد أمّك وهي ترثي حالها بابتسامة مقتضبة. تخـــافين نهايـــة مماثلـــة أم تنتظرينهـــا؟ تحوكينها رغمًا عنك وتختارين الطرقات نفســـها لتـــواجهي فشلك مستمتعة بلذّة الاحتضار بين يديٍّ أساك. تتذرّعين كـــلّ مرّة بالحكاية نفسها "ليس جرمًا أنّ تضل الطريق في غابـــة مظلمة".. تلك المرّة كانت أنوار الغابة مضاءة بوضوح عار، قاس، ومربك.. "أنا لم أعرفك أصلاً كي أحبّـــك". يصـــوبّها نحوك فتتذكّرين المدرّج والولد الذي كـــان يصـــف ضـــفائر

محبوبته وهي تدخّن وتشكو مـــن الصـــداع وتتكـــوّر فـــي البنطلونات الضيقة وفي جيب قميصها تخبّي قصائد تتحـــدّث عن "جوع إلى عري مدجّج بالهلاوس". صارت البنت ظـــلاً لامرأة ما عرفت يومًا كيف تكونينهـــا، كانـــت دائمًـــا تمـــرّ فتمصمصين في أصابعك من المهانة، وتفترش جدّتك "ستّي" مقعدها وتمدّ ساقيها البيضاوين في الماء الضّحل وبـــالحجر الخفاف تلوح بصدر مليء بالعقود.. "أحبّ ولا أتوب يا ناس شوروا عليّا.. أحبّ ولا أتوب أستاهل الشبشب ولا المركوب اللّي أسيب الأصيل وأمشي ورا المعيوب يا نـــاس شـــوروا عليّا".

تضحك فتلبد أرانبك في جحورها وتضمين جروحك. متسامحة مع قسوته، واجدة له آلاف الأعذار، متذكّرة الولـــد الذي اختار صديقتك دونك، مردّدًا العبارة نفســـها "المعرفـــة طريق المحبّة ونحن لم نتعارف بشكل كاف، أنـــا حتـــى لا أستطيع التكّهن بتفاصيلك من خلال هذه الملابس".. خلعـــت قفّازك وغطاء رأسك، وفتحت قلبك عن آخره، مؤكّدة أنّ كلّ تنازلات المحبّ مغفورة وأنّ الحياة تحتمل ممكنات أجمـــل، وأنّ التواصل ليس حقه فقط، بل حقّك في الحياة، وأنّ علـــى

علاقتكما أنّ تتحرّر من المفاهيم الاجتماعيّة المجحفة، كاتبـــة وسط سطورك، "المحبّة شرف" متنازلة عن كلّ ما كنت بـــه منتظرة اليوم الذي تدحرجت فيه إلى الحياة زرقاء ومتوجّسة، ليكون يوم ولادتك على يديه، والهاتف الذي ترك لك أفـــواه الأسئلة مفتوحة قد يردّ في محاولة قلت إنّها الأخيرة، بعـــدها ستكفّي عن اعتذاريّاتك وقصصك وركوب الأراجـــيح، فقـــط تعاودين صنع الحكاية نفسها لتمضين إلـــى التعـــاريج التـــي تسكن بها رغباتك، هنا في كفّة يده التي قد يمسك بها المقود حيناً أو يتركها ليـــدك لتواصـــل أصـــابعك الزاحـــف بـــين تعاريجها، والكلمة المنغمة التي سبق أنّ تفوّهت بها مازالـــت في فمك "هل يمكن أنّ تشاركني ليلة مولدي؟" ســـيترك لـــك "ربّما" أو "لا أعرف الظروف" حبلاً معلقًا تتـــأرجحين علـــى التواءاته وتؤكّدين أنّك ستكونين مهذّبة ومحبّة، ولن تتطفّلـــي عليه كثيرًا. فقط تودّين.. ماذا تـــودّين؟! أنّ تضـــمّيه بينـــك وبينك، وأنّ يقبّلك في مفرق عينيك، أنّ تتحسَّسي خطوط كفّه ليكتشف أنّ بين خطّي الموت والحياة ثمَّة نقشًا يخصّه. ثوب أمّك مازال في صوانك جاهزًا كما أعددته و "أولجا" ســـتلقي بسيجارتها لتعدل لك أطراف حاجبك، وستقرضـــك "ســـاريا"

حذاءها وفي عنقك عقد اشتراه لك، وفــي حقيبتــك العطــر والتذكرة القديمة لفيلم شاهدتماه سويًّا، حدث ذلك مــن عــام وقبل أنّ يقتسمن نظرة الإشــفاق التــي ضــمختك بتلــويح الكفوف، التقطت الورد من على الطاولة والتقطت شيئًا آخر وضممته إلى صدرك، وركضت..

ساقاك باتّجاهه وانتظرت أن يفرغ من دقدقته علــى المقود لتفرغ يداه لكفّك. في الظلام المطبق وأشــباح علــى شاشة العرض تتراقص، تضمّين يده في يديك، تتحسّســينها بهدوء، من هنا أنت تعرفينه، والصّــمت لغتكمــا الوحيــدة، وبقلب مفعم بأسى انتظار وهجر وأشواق لا محتملة، تهلوس أصابعك بالمحبّة، تحاور يده العصيّة، والظلام مطبق، والبنت التي في الشاشة تقبّل حبيبها، وأنــت تلقّمــين بــروده بكــلّ الرّغبات التي كففتها، وأنت باللّهفة نفسها التي في كفّه وباطن رسغه عن لهفة مماثلة. ببرود سيمسك كفّك وينزلــه لحــدود مقعدك وينبّهك لبشر لم تريهم، كان كــلّ همّــك الاقتــراب، تاركة سيجارة "أولجا" في الشرفة تشــتعل والأقــواس فــي أوراقك تتحدّث عن الكفوف والقمع الجنسي والقيم المعطّلــة، وتاركة أمّك تلمّع في دولاب الفضيّة بالخل أو تصبغ الشــيب

الخفيف بالحنّة والكركم وأوراق الشاي، تقتربين أكثر ووجهك في و جهه كما لم تفعلي أبدًا وبعينين مليئتين بالتحدّي والأسى تسألين : "أنا لم أفعل شيئًا؟" تنظرين ليدك المهجـورة علـى طرف المعقد وتردّدينها لصمته، تلك العبارة التي لم تجرئـي أنّ تقوليها لمدرّس الفرنساوي الذي قال لك "لا أريد أن أسمع صوتك نهائيًّ"، ستقولين لنفسك بعدها نحن نصدّق ما نريد أن نصدّقه من وشايات، وتؤكّدين أمام صمته أنّـه لا يريـدك، وتحسّين المسافة بينكما شاسعة، وأنّك وحدك الذي خلق وهم المحبّة منذ البداية وأنّك الوحيدة التي صدّقته، وأنّ عليك الآن أنّ تسحبي، مؤكدّة لنفسك أنّ ذلك تمّ متأخرًّا للغاية. تضـمّين اللّفافة نفسها التي خبّأت فيها لعبتك، ستتركينها تدور حـول نفسها في متاهات روحك وتواصلين الـرّكض فـي أنفاقـك السرِّية.

لابدّ أنّ أخرج من هذا المكـان وإلاّ فسـيحدث مـا ينتظرونه تمامًا. سيحدث ما قاله لي وهو يصرخ في المقعـد الملاصق، والنّاس تركت أعينها عن البنت التي تقبّل حبيبهـا على الشاشة وحدّقوا فيّ. أنا أجمل منها بالتأكّيد وأكثر حماقة، هي تحبّ رجلاً تخلقه أوهامها، وأنا أحـبّ رجـلاً يجلـس

بجانبي لينتزع يده من يدي ويقول "أنــت مجنونـــة.. غيــر طبيعيّة بالمرّة" . أطفال تضحك خلفي، ماذا أفعل؟! لا أعــل شيئًا يكمل: "أنا لا أحتمل قلقك. اتفضّلي امشي في داهية".. "لا أريد أن أرى وجهك" ستشبكين أصابعك فــي أصــابعك وتقولين: "أنا أحبّك وحلمت أنّ أعيش معك".

سيقاطعك قبل نهاية الجملة "ليس عندي وقت لك، أنا لا أفكّر في الزواج ولا في أطفال ولا في كلّ ما في رأسك.. أنا لست فاضيًا لواحدة مثلك.. اتفضّلي، أنا ناقص قلق".

تقضمين شفتك بأسنانك وتمدّين يدك ليده في السيّارة والبنات في الشرفات يتلصّصن عليك، يدك تلثم يده تلك المرّة لا ليعود إلى التعاريج التي صعدتما فيها سويًّا ذات يوم مثــل هذا اليوم الذي هو يوم مولدك، وتلاقيتما هناك، ساعتها كان كما انتظرته كلّ أحلامك، والوجه نفس الوجه، والكفّ نفــس الكفّ، وأنت أنت. وهو يفتح باب العربة ويقول بعد أنّ ينتزع يده بسرعة "لا أستطيع أنّ أتعاطى الجنس فــي الشــوارع". ستسحبين يدك بسرعة وتهبطين في الطرقات المظلمة.. لــن تنامي ولن تصحي، ستجلسين عارية علــى الــبلاط البــارد وتطلبين من المارّة أمام حجرتك أنّ يطفئوا أنوار الطرقــة،

وتعضّين على أوجاعك بانكسار: "أنا لم أعرفك أصلاً كي أحبّك". وفي الظلام تأتي أمّك لتسحبك من شعرك ومعك الحقيبة نفسها التي بها الأشياء التي تعرفينها.. صورة أبيك، صورة جدّتك وأنت في حجرها، عقد بلون الغيم، تذكرتان للسينما، حرفان متشابكان على هيئة "أحبّك"، عروسة فوق المكتب وأرنبة وبيجامة بها ورد، وورقة علّقتها فوق فراشك، خطّطت بالألوان الفسفوريّة كلماتها: "يا الذي أنت شمسي في كلّ حين لماذا لا تشرق عليّ قطّ". ستسحبك أمّك من ذراعك، وتفتح نوافذ غرفتها وتضع النرجسة في آنية الزهر، وترشّ على الوسادة قليلاً من العطر، وفي المغطس ستترك الماء الدافئ ينزلق من على خصلات شعرك ويمضي فاحرًا في تجويف جسدك. لن تقوي على الوقوف، ستضمّين رأسك بين ساقيك والماء الذي يبحث عن طريقه لن يدخلك، سيملأ المغطس ويفيض، ورأسك بين ساقيك، وصوت انتحابك يسيل، وهي هناك تنتظرك بالمنشفة وبيجامة بها ورد صغير وكرانيش حول الجيوب. ستعيد تضفير شعرك لتنامي اللّيلة في أحضانها، ابنة مهذّبة رقيقة لن تفتح فمها لأنّها حين تضحك تظهر خبطة قديمة في فكّها العلوي، وستنظّف أنفها

جيّدًا لأنّ الكلمات أحيانًا تخرج من أنفها فيدو صوتها غير مريح، ولن تنطق السين ولا الصّاد ولا الثاء ولا الذّال ولا الشين لأنّ بين سنّيها الأماميين فراغًا تلحظه أمّها، وتلحظ أيضًا أنّ تلك الحروف لا تجد مخارجها الصحيحة، ولن تنسى أنّ تكون نظراتها دائمًا محدّدة لأنّ حدقتها تتّخذ بعض الجوانب كأنّها حولاء، والأفضل أنّ تركّز النظر في حذائها لتتأكّد أنّ ساقيها مضمومتان، وإذا اقتضت الضرورة أن ترفعها فلن تطيل ذلك. وهي تعرف أنّ بجانب فراشها قطنًا لتنظّف أذنيها، ولن تنسى ذلك وهي تنظّف أسنانها خمس مرّات في اليوم. لكن لن تقنع بأنّ تلك الرائحة ليست من أسنانها بل هي من حلقها المصاب بالاحتقانات.

ها هي تنام طويلاً وتحاول أن تصادف بدايات جديدة، وربّما يأتي ويوقظها ويضمّها كما كانت تحلم للأبد.

باب البين

" وقد علمنا أنّه لابدّ لكل مُجْتَمعٍ من افتراق ولكلّ دان من تناءٍ.. وهو الخطب الموجع والهمّ المفظع والحادث الأشنع والداء الداويّ وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب" **(طوق الحمامة)**

في البيت الذي أسكنه حجرتان بينهما حائط، ولهما شرفة واحدة، تسكن بها امرأة كنت أعرفها، حين نلتقي في الممرّ نبتسم، وحين تقابلني خارجة من الحمّام، ورذاذ الماء يتناثر من شعري تهزّ رأسها باعتبارنا أصدقاء، وإذا خفت الضوء قليلاً واصطدمت قامتانا ونحن نلتقي في الشرفة، سنترك الأشياء المهمّة التي كنّا نتحدّث عنها ونحسب الفرق بين عمرينا ومشاكل الحواجب والشعر الزائد الذي ينمو أكثر صيفًا، وربّما تقول إنّ لديها مشكلة وحيدة، ستحلّ.. إنّها لم تنجب حتى الآن، وإنّ ذلك مقلق، لكن حينما تعود، لابدّ أن تجد حلاًّ، ستريني صورًا في حافظتها ولن تجيب حين أسألها، هذا الذي تقول عنه زوجها هل تحبّه؟! تهزّ رأسها وتقول إنّها لم تفكّر.. هناك فقط مشكلة واحدة، إنّها حتى الآن لم تنجب، ستبتسم بأسف أكثر حين أقول لها أيضًا إنّني أحبّ

رجلاً ربما لا يحبّني، سأمصمص شفتي مثلها وأقول.. مشكلة لابدّ أنّ تحلّ، ونغلق باب الشرفة متأكّدتين أنّ هناك خيبات كثيرة وأنّ السعادة ربّما لا تجيء، نرتدي نظّارات القراءة ونعاود الحديث في أشياء ندّعي أنّها مهمّة لتزداد عيوننا لمعانًا كلّما عبرنا جسرًا من الطموحات.

في البيت الذي أسكنه، صارت هناك غرفة فارغة تجاور غرفتي. كان بها امرأة صغيرة تحلم أنّ تتجب، ترتدي نظّارة سميكة ليقولوا عنها مستعربة، كانت تقول لي في الظلام إنّها تفهمني تمامًا. مضت اليوم، حملت حقائبها دون أنّ تقول لي وداعًا.. رحلت إلى بلادها البعيدة، تركت بجواري غرفة فارغة.

....

صديقتي التي اقتسمت معها دموعي تصحو في اللّيل لتكتب قصيدة جديدة، تكتب صيغة نعيها، وتعدّ أسماء الذين تفترض بكاءهم، كانت تحلم برجل مهيب يوزّع الحلوى على أفواهنا، ولا يطلب منها شيئًا ، فقط أنّ تبتسم، ورّما يخطفها إذا رأى، كم هي جميلة، كم هي حزينة؟! لابدّ أن يكون مناضلاً مثلاً، يجلس الآن على فراشه كسيحًا، يجترّ معها

أمجادًا طالما عاشها، وبين كلّ جملة وأخرى، ينظر لصــوته في الإطار، ليتأكّد من أنّه هو الفتى المقصود.. فقد كان يافعًا وجميلاً يصلح لأحلامنا الليليّة. صديقتي التي كانــت تكتــب القصائد، خاصمتها البارحة، بعدما اكتشفت أنّ وسادتي التــي تمتصّ دموعي قد لا تجد حرجًا إذا أفشــت بعــض أســرار جروحي. كلّ الوسائد تعرف الخيانة، لكنّها كانت إذا بكــت، ادّعت النّوم كي لا أرى في مقلتها صورتي البائســة. وفــي الصباح، تعد كمادتين لعيني وتقول إنّه الإرهــاق. ســافرت بالأمس، ذهب تبحث عن تراب بيت قديم عــن كنــز خبــأه أبوها، وملاعق من ذهب دسّتها أمّها فــي التــراب، لأنّهــا اكتشفت أنّ القصائد والفارس الكسـيح، وعينيهــا المليئتــين بالدّموع، لن يخلقوا لها فرحة واحدة أو كلمــة فــي قائمــة الرّثاء.

....

كانت بيننا، واقترب مسافة، أوراق قديمة في جيــب سترته، واقتربت. نسيت أن أقول له إنّ تلك السنوات التــي يسأل عنها كانت في انتظاره، وإنّ هذا الثوب الــذي ألبســه اشتريته ليعجبه، وأنّي لا أطيق تلــك الأوراق التــي يكتبهــا

لأناس غيري، وإنّي أحبّه، فمضى.. وبقيت لي مسافة ، يقف فيها الخوف، وتقف فيها تلك الجروح التي يعرفهــا، ويقــف فيها الآخرون.

....

قابل صديقتي البارحة ، قال لهــا إنّــه لا يعرفنـــي، أخفت عليّ ذلك، وتركتني أحكي لها الحكايات عنه. حـــدّثتني فقط عن أنّ كلّ الأشياء تطحنها الطواحين، حتّى الأحجـــار. لكنّني حين جلست بانتظاره نصحتني بالنّوم. قالت، إنّ علـــيَّ أنّ أنسى. قال أيضًا لأصدقائه إنّني تافهة، وأنّه لا يريـــد أن يعرفني. قرأت في وجوههم ذلك فانصرفت ببؤس. هبّت نسمة من النافذة، كانت باردة، لكنّني فتحت لها صدري فحـــدّثتني أنّها مرّت عليه، وأنّه حقًّا لم يعرفني أبدًا، وأنّ عينيه ليســـتا جميلتين كما أعتقد!

إنّه لا يســـتطيع أنّ يـــرى إلاَّ هواجســـه وأكاذيـــب الآخرين

وأنّه سوف يظلّ يصدّق ما يريد أنّ يصدّقه.

قال لي ذلك كلّه، فكرهتها..

وانتظرت نسمة أخرى قد تقول لي "إنّه يحبّك".

أنا الآن هادئة تمامًا، مثلما أكون بعــد كــلّ نوبــات حزني، أتمدّد على الأرض وأجترّ آثامي.

يدي التي تحنّ إلى دفئك، فمي المعذب بالرّغبــات، وجسدي الذي أنهكه الانتظار.

أخبّئ وجهي بعيدًا عن مرآتي، لكن حين تــواجهني ستقول عنّي بسخرية، افتحي زرًا إضافيًّا من أزرار القميص، وتحدّثني عن النسيان، وعن فضائل ارتداء القفّــاز وصــنع المسافات وبراقع الخجل، وبعد أنّ تسرد أحكام الصدّ والهجر واللّوعة وتؤكّد خيباتي، ستأتي أمّي بعد أن تفرغ من صلاتها وتضع رأسي على حجرها وتعدّد الرقى وتحدّثني عن عيون النّاس.

وحين تمرّ أنت ناسيًا أنّ هذا الذي بقلبي هو جرحك سيأتيني الأرق ويشاركني فراشي ويحدّثني عــن الكبريــاء، وسوف أتظاهر بالتصديق وأغافله باللّيل وأحتضــنك، وقــد أبكي على صدرك.